رقصة الأناكوندا

رواية

سعدية بلكارح

- الكتاب : **رقصة الأناكوندا**
- المؤلف : **سعدية بلكارح**
- التصنيف : **رواية**
- يصدر عن

شعلة الإبداع للطباعة والنشر

- رقم الإيداع : ٧٦٦١ / ٢٠١٩
- الإخراج الفني : **أسماء أشرف عزمي**
- بالتعاون مع

اللوتس للنشر والتوزيع

- **ت / ٠١١٢٠١٣٠١٧٩ ــ ٠١٠٢١١٥٦٧٥٧**

حقوق الطبع محفوظة

و يعتبر المؤلف مسئولاً مسئوليةً كاملةً عن كلِّ ما وَرَدَ في الكتاب.

مدخل:

إلى السلام
المفقود بداخلي..
وحولي..
إلى الأرض
حين تلفظُ أجساداً
تَنازعَها الغضب..
أقول:
كفى كراهيةً..
كفى إقصاءً.
كفى قَتلا...

: البوابة رقم ١

- متى موعد إقلاع الطائرة؟
- ستقلع من مطار مونتريال إلى كازابلانكا بعد ساعة يا أحمد. كما هو مُبيّن أمامك على الشاشة.
- عذرا لم أنتبه لذلك.
-لا عليك. هو أمر عادٍ يحدث لكل الناس في مثل ظروفك هذه
- نتمنى خيرا.
- خيرا إن شاء الله.
- هل عدت إلى التدخين؟ حسب علمي كنْت قدِ انقطعتَ عنه منذ مدة.
- نعم، منذ آخر عملية جراحيةٍ أُجريت لي على الكبد من خمس سنواتٍ.
- إذن أنت تورط نفسك في مشاكل صحية أخرى. أنا أيضا كنت أدخن بشراهة وقت فراغي. لكنني أقلعت من شهرين كما تعرف.
- رغما عني. أشعر بالاختناق.
- خفّف عنك يا صديقي.أنا هنا لأجلك.

يردّ وهو يسحب آخر نَفَس من دخان سيجارته الكوبيّة الصنع. والقدّاحة الذهبية تنتفض بين أصابعه في تأهُّب للاشتعال من جديد:

-شكرا يا رامي لولاك لكنت الآن في السجن.

يرمي بعقِب السيجارة تحت حذائه اللامع، يسحقه وهو ينفث آخر خيط دخانٍ من صدره قائلا: ولا تقل لي السجن للرجال، كرهتُ هذه العبارة المتخاذلة.

تلتهب نظرات الدكتور رامي الذي يفهم دلالة العبارة، فيحوِّل بصره عن صديقه لائذا بالصمت.

ثم يسحبه من ذراعه بلطف لارتشاف فنجانيْ قهوة معاً.

يُذعِن أحمد لصديقه دون أن يُصدِر نأمة واحدةً، وتنهيدةٌ عميقةٌ تمزق السكون المضطرب..

في طريقهما القصير إلى المقهى، تثير انتباهَ أحمد طفلةٌ جميلةٌ تبكي بشدة. يقترب منها مدلّيا يده، فينهره مراهقٌ بجانبها، ناعتا إياه بالإرهابي. ينكص على عقبيه، دون أن يبدي استعدادا للرد على عدوانية الصبيّ، أو شرح موقفه.

ممتعضاً، يحرّك د. رامي رأسه يمنة ويسرةً في استنكارٍ بليغٍ دون أن يتحدثَ.

يجلسان في مقهى أنيق يتناول رامي طاسة قهوته بين يديه يداعبها بصمتٍ.

ويجترع أحمد قهوته متكدِّراً..

بعد لحظاتٍ وجيزةٍ يلعلع مكبّر الصوت في الصالة، معلنا بلغة موليير عن دخول موعد الرحلة ٨٤٨، المتوجّهة إلى الدار البيضاء. الكل يتقدم إلى البوابة شاهرا جواز سفره.

ينسحب أحمد(رجل أعمال مغربي الجنسية مقيم بضواحي تورنتو، بمقاطعة أونتاريو الكندية(خلف الدكتور رامي)طبيب مصري جرّاح، خريج جامعة القاهرة كلية الطب. يعمل رئيس قسم وحدة الجراحة في مستشفى هانوفر بمقاطعة أونتاريو. ويقيم بتورنتو أيضا) . الصديقان معاً يبدوان في العقد الخامس تقريباً من عمريهما. يقفان أمام رجليْ أمنٍ ، لإجراء آخر فحص للعبور إلى حافلة الطائرة الماثلة خلف الحاجز الزجاجي، ثم إلى مدخل الطائرة الرابضة كالعنقاء بشموخ، تناجي ابن فرناس: "أيها العباس، سلِم فكرك الذي أوحى بركوب الريح ".

على هامشيِ المدخل، تقف مضيفتان شقراوان ، بتنورتين قصيرتين تكشفان أعلى الركبتين، ترسمان ابتسامة رشيقة على شفتيهما، المخضبتين بأحمر شفاه غامق،

ترحبان باللغة الانجليزية، متمنيتيْن للمسافرين رحلة موفقة.

في الطائرة، يستلِمهما طيّار أنيق بوجه وسيم بشوش وهامة رشيقة. يدلُّهما على مقعديْهما بكل دعة.

أثناء هذه البروتوكولات الروتينية، يهيمن الصمت بين الصديقين، إلا من بعض كلمات غيرِ ذات أهمية، كردٍّ على مجاملات المضيفِين أو على بعض الاستفسارات العابرة، ثم يلتفت الدكتور رامي إلى أحمدَ قائلا:

- مقعدك ٢٣ "ب" أليس كذلك؟

-لا بل ٢٣ "أ". وأنت؟. ذكِّرني برقم مقعدك.

-٣٣"ك". لكنْ لا تهتم. قد أغيّر مقعدي لأكون بجانبك، بعدما يأخذ كل مسافر مكانه.

- ممتنّ لك، لكنْ ألم تلاحظ أن الجو خانق هنا بشكل غير مألوف وكئيبٌ أيضا؟

يستطرد الدكتور، كأنه لم يسمع ملاحظة أحمد، وابتسامة لئيمةٌ تنقشع على محياه:

- إلا إذا حدثت استثناءات لا أستطيع مقاومتها. فالفرص الجميلة نادرا ما تجتمع.

-امرأة جميلة مثلا؟ فرصٌ كهذه قد تكون ملغومة يا دكتور. توخّ الحذر.

مبتسماً يعقّب:

-أنا حريص جدا. أحيانا أستمتع بالحياة، لكنني أبدا لا أتهوّر .

يرفع حاجبيهِ ممعِنا النظر في وجه د. رامي. يصمت لحظة ثمّ يتهجى كلماتٍ متقطّعة:

- يعني.. أنا.. أتهور. معك حق. وأعترف بعيبي.

تُسمع قرقعة ريقه في حنجرته. يحوّل بصره عن صديقه مستأنفاً:

-كانت أمي دائما تحكي لي عن شغب الطفولة قائلة:

"لما كنتَ طفلا، كنتَ تضع يدك على ما في يد غيرك تطلبه حثيثا، ولا شيء يقف أمام إصرارك عليه".

- تجنبا لهذا كله، عمِلْتُ وزوجتي على كسر مثل هذه الطفيليات في ابننا.

يجلس في مقعده وهو ينظر إلى المسافرين. كانت نظراتُه جوفاءَ تصَفِّرُ فيها الريح.

- عمّن تبحث يا أحمد؟

- لا أحد.

يهيمن الصمت من جديد.

يأتي صوت المضيفة هادئا، مطالبا بلزوم المقاعد وربط أحزمة الأمان.

الدكتور رامي، الذي ما يزال واقفا حذو مقعد صديقه، ينتبه إلى أنه معْنيّ بالنداء الموجه من المضيفة. يومئ لها بأن تقترب، تأتي مسرعة مثل فراشة رشيقة.. يطلب منها تغيير مقعده، إلى جوار صديقه لظروف صحية. بلطف شديد تشرح تلك الظروف لجار أحمد الذي يستجيب بسلاسة. يبدو من لهجته ولون بشرته أنه من أصول إفريقية.

يتلقى الشكر وينسحب إلى المقعد الشاغر في الجهة الأخرى.

منشرحاً، يتبع الدكتور رامي الحسناء بعينين حالمتين وهي تبتعد.

البوابة رقم ٢ :

يستقر أحمد بهدوء في مقعده، بجوار الدكتور رامي. يُطِل من نافذة الطائرة وهو يُصدر من عمقه تنهيدات مسموعة.
يلاحظ الدكتور اضطراب أحمد. يشعر بتوتر أيضا وهو يقلّب الطَّرف بين كتاب بين يديه، ووجهِ صاحبِه المنهمكِ في تمعن الفضاء الممتدّ خارج الطائرة.
أحمد الهائم في أزمته، يفكر بصمت هذه المرة، يتساءل دون أن يقحم صديقه في هواجسه:
" من أطلق النار علينا تلك الليلة؟
من الشخص الذي كان يرافق كريستي قبل أن تقْضي؟ أين اختفى بعد ذلك؟
أين اختفى سلاحي الذي سُرِق مني لتصفية كريستي؟
ماذا لو لم يكن صديقي الحميم مناوبا في المستشفى تلك الليلة؟
يتأرجح في مكانه قائلا: " السجن يطاردني في الحلم وفي اليقظة. تبا لحظي العاثر."
حزمة من الأسئلة ظلت عالقة في رأسه تحتاج إلى إجابة.
يلتفت إلى صديقه، فيجده مبحرا في ملكوت القراءة، يغمغم في نفسه: ليتني كنتُ أنتَ، ليتني كنتُ طبيبا، الأطباء لا يخطئون.
الأطباء لا يجب أن يخطئوا .
يفد إلى سمعه صوت مألوف. يتلفت مفزوعا.

ضِحكة أنثى تخترق طبلة أذنه. إنها هي. كريستينا. صوتها قريب جدا.

يبصر سيدةً شابةً تجلس بين رجلين. كانت تشبهها إلى درجة كبيرة. لولا بعض الاختلاف الطفيف في لون البشرة وقَصّة الشَّعر. يفرك أذنيه جيدا وهو يزفر بشدة.

الدكتور ما يزال منغمسا في القراءة، لا يحيد منها.

يلتفت إليه فيجده منفصلا عن العالم. لا يرفع عينيه عن رواية "جنون المتاهة" للكاتب الإنجليزي آدم فولدز. تستهويه قراءة الروايات الحائزة على جوائز عالمية.

حركة لا إرادية من صديقه أحمد تنزعه من شروده المُلتَذّ ، فيلتفت إليه ثم إلى مَن حوله، وكأنه يستفسر عن المكان والزمان، وربما عن سبب وجودهما هنا في هذا الوقت، لكن سرعان ما استدرك قائلا:

- صدقني يا أحمد، القراءة متعة لا تقاوَم، إنها متعة حقيقيةٌ.

يباغته بابتسامة ساخرة:

-أمتع من النساء؟

-المرأة قد تغيّر مجرى حياتك ، لكن ليس دائما. أما القراءة فتغير مجرى فكرك إلى الأبد. فأيهما أقوى؟

- البقاء للأقوى طبعا.

بابتسامة صفراء تعُفِّر وجهه الكئيب، يردف:

- المرأة شِراكٌ مُلَغَّم باللذة.

- ولهذا وقَعتَ في شِراكها شرَّ وقعة.
مسترسلا يقول بنبرة مختلفة: اسمع يا أحمد، حتى لا نظلم المرأة بهذا التقدير المنهوك، نحن نتحدث من خلال تجربتك البائسة. هناك نساء صانعات قرار.
- وفكرٍ أيضا.
- لم نختلف إذن ، فخُذ معي هذا المقياس"مال وخمرة وامرأة مثيرة ".. في المكان الخطإ والزمن الخطإ، ثالوثٌ يهدد بالجريمة .وهذه مصيبتك.
بصوت واهنٍ يعقبُ أحمدُ:
-العقلُ يسقط أمام هذه المؤثرات الثلاث يا صاحبي، ويخرج عن طوعه.
ثم يهمس كأنه يحدّث نفسهُ. ود. رامي يلتقط كلامه بحرص شديد:
-عندما تضع الأشخاصَ فوق أقدارِهم، فإنهم يتمردون عليك. لا يصَدقون ما حصلوا عليه من ميزة، ينتفخون كجيفة.
- لهذا بالذات، كانت القراءة هي المتعة التي لا تخذلك، ولا ترتفع دونك، وإنّما تأخذك أنّى تشدُّ رحالها.
- ما أهنأ بالك يا صديقي !حقيقةً أغبطك. و أعزو شغفك هذا بالقراءةِ إلى هروبك من الواقع. ما لا تستطيعه في الواقع تستطيعه في الخيال.
-احتمالٌ...

يعود كلاهما إلى وضعيته السابقة. ينظر الدكتور رامي إلى الكتاب بين يديه.

و يُلقي أحمد ببصره خلف النافذة، يتركه ينفذ إلى متاهات ذلك الكون العلوي. يرفع عينيه إلى السماء تارة، وأخرى يُخضِعُهما إلى السحاب المتهاوي على ذؤابات الموج والجبال.

ثم يتمطى قليلا فوق مقعده. يتثاءب بوتيرة متتالية لعدة مرات، فيغمض جفنيه ويستسلم لغفوة عابرة .هاهو يلوي عنقه قليلا جهة الضوء، كهاربٍ إلى الله، يغمس روحه في ماء الطُّهر. علّه يتعافى. ويجد طريقه إلى راحةٍ أبدية.

بينما يظل الدكتور رامي يزاول قراءته الأثيرة، يجوب مناحيها في اندماج تامّ. لاشيء يكدّر متعته تلك، إلا بعض مطبّات الهواء حينَ تجرف الطائرة قليلا، فتشطح شطحاتها البلهاء كرقصة ذبابة، قبل أنْ تستقيم مزاولةً تحليقها بانضباطٍ مُحْكَمٍ.

يتابع قراءته وهو على بساطِ الغيمِ، هائما كرضيع يتحسس الأمان في صدر أمهِ. هل هو مندمجٌ حقا أ م هارب من التفكير في مصير صديقه؟. ذلك المصير الغارق في العتمة . يغمغم: "لاشيء يبشّر بخير" وهو يتأمله من فوق نظارتِهِ المنصوبة على أنفه البارز، كأبي الهول الشاهدِ على حضارة الفراعنة. يحدق في وجهه الناعس مهمهماً:

نم يا صديقي، نَم قرير العينِ ولتحترقِ الأرضُ من بعدك.

ليتنا نظل خارج الأرض. الهواء خارج هذه الطائرة نظيفٌ. هؤلاء الذين معنا الآن، حكاياتهم ملوَّثة، رغم قلة عددهم فهم يمثلون العالم، هم جزء مصغر منه. ماذا لو تخلصنا أنا وأنت منهم جميعا؟ ماذا لو سحبناهم خارج الطائرة. النساء الجميلات يبقيْن.

- والمِثليون؟

يلتفت مندهشا إلى الصوت المنبعث من داخله، يرد مقطّبا حاجبيهِ، وشفتاه الدقيقتان ترسمان قرصاً:

-لا نريد مِثليا ولا جَندريا في هذه الطائرة. لا مجال هنا للعبث. دعنا نفكّر كيف ننقذ أحمد. كيف ننقذ الأرض من الفوضى.

-إذن احتفظ بالركاب جميعا يا شِقّي، فالعالم يستقيم بالرجال والنساء معا.

-الأسوياءِ فقط. هؤلاء موبوءون جميعا. إنهم يحملون أدواءَ متنوعة الخطورة.

- لكل داء دواء، كما قال الكِتاب المقدس.

- أيَّ كتاب مقدّس تعني؟ ثمّ بعض الأدواء لا ينفع معها إلا الاستئصال أو البترُ.

- إذن هناك في النهاية حلٌّ.

- نعم إذا تعلق الأمر بالمادة.

- ماذا تقصد؟

- أقصد أن العضو المريض إذا تعفن يُبتَر، وقد يُستعاض. وأما الفكر، فيُفصلُ ولا يستعاض.

- ألا يمكن للمرء أن يغيّر فكره إذا تلوثَ مثلا؟

- يمكن طبعا إذا أُرغِم على ذلكَ. لكن تظل جمرته متقدة وقابلة للاشتعال في أي وقت.

ولذا سأتخلصُ من كل الجمر المتقد في هذه الطائرة حتى لا نحترق.

- ماذا تقول يا دكتور؟ هذه جريمة.

- لصالح البشرية أطفئ الجمر المتقد تحت الرماد. نحن في مهب الريح. وقد ننفجر في أية لحظة.

- أمهِلْني حتى أقفز وتخلصْ منهم إن شئتَ .

- لا لا تفعل . لن أؤذيَك. أنت تفكّر. قد أحتاجكَ.

يسقط الكتابُ من بينِ يديْه. ينحني ليستعيده . تزكم أنفَه رائحةٌ قوية.

ينتبه إلى أن جاره البدين، عن يمينه، يضع قدميه خارج حذائه، ويغطُّ في نومة مبعثرة .

يفتح عينيه بعد كل شَخرة. كدبٍّ يراوغ سباتَه. يبحث د. رامي في حقيبة صغيرة أمامه عن شيء ما. يبدو أنه معجون أسنان. أخذ يدعكه بحركةٍ سريعةٍ، على أرنبته. كأنه يتّقي إغماءة . تستفز البدينَ بقعةُ المعجون تلك، فيبحلق في وجهه، ثم يحوّل بصره عنه وعلى شفتيه المضمومتين ضحكة ترتجّ لها كرشه المكوَّرة.

تظهر مضيفاتٌ فارهات الجمال والرشاقة، تدفع إحداهن عربة عليها عصائر ومشروبات باردة. وأخرى تسحب بعدها بثوانيَ قليلة، عربةً عليها جرائد ومجلات متنوعة محلية ودولية، تضمّ ما استجدّ من الأخبار بالمجانِ، مع مجموعة من أفخم العطور، للبيع بالدولار الأمريكي.

تمتدّ أيادي الزبائن لانتقاء ما اشتهوا من المعروضات، إلا أحمد فيبدو ضجِراً عكِرَ المزاج.

أما د.رامي فلا يعجبه شيء، إلا ذوات السِّحر خلف العربات، لم ينزل عينيه عنهنّ. يلتهمهن في صمتٍ. ربما تتراءى له خيوط قصة قصيرة من إلهامهن، أو قصيدة شعرٍ يفكّ بها خيوط حكاية متشابكة. يلتفت إليه أحمد وعيناه تلتمعان: أريد خمرا.

- أتمزح؟. ومن غير انتظار يطلب له عصير توت وقطعة كعك.

تمتدّ يد ناعمة إليه بما يريد.

- شكرا يا آنسة

تسأل بأنوثة هادرة:

- وأنت ماذا تشرب يا سيدي؟

يجيب مبتسما وهو ينظر إلى أحمد:

- وُوتر.

تمد إليه كوبَ ماء وعيناها على المسافر التالي، تردد نفس الخدمة بابتسامتها الخفِرة. يلتفت إليه أحمد قائلا:

-جميل أنك فهمتَ كلماتها الفرنسية.

- الفرنسية تنافس كل اللغات في العالمية.
- لا أظن ذلك، فالإنجليزية ، هي الأكثر استعمالا على هذا الكوكب.
يضحك الدكتور رامي بصوت مسموع :
-أووفْ يا صديقي دعنا من الإحصائيات الرسمية الآن، وانظر:
أليست الفرنسية أحلى؟ ألا تهدد باحتلال المركز الأول؟
- لا أختلف معك، قد تسترجع مكانتها لرشاقتها وخفة روحها، أقصد حروفها، هي أيضا أنيقة.
- والأكثر من ذلك أن كل العيون عليها.
- عيون من يا رامي؟ أ تمزح ؟ هل صارت نجمة سينمائية أو مَعْلَمة تاريخية؟
إنها لغة..لغة.
ضاحكا يعقّب:
- أنا أتحدث عن المضيفة الفرنسية. فقد نسيتُ أمرَ اللغة حين ظهرت أمامي تلك الزهرة البرية.
يرد أحمد بابتسامة منهَكة قائلا:
- يخرب بيتك يا رامي نسيت أنك شاعر.
- نطقتَها زي الفل. ويخرب بيت الشِّعر وبيت الفرنسية عَ الإنجليزية.
تُفَكُّ ضحكتان باهتتان من معقليهما، رغم المنغِّصاتِ السائدة.

البوابةرقم٣

يعلن ربان الطائرة بعد بضع دقائق عن اقتراب موعد الوصول.
فيستعد الركاب بعد تحليق طويل في الجوّ، إلى تنفس الصعداء باقتراب انتهاء التوتر.
تظهر المضيفات جميعهن ،حتى من كنّ مختفيات، طوال الرحلة، خلف الستارة المتدلية، أمام الأنظار الممتطية صهوة الحُلم.
يوزعن الابتسامات ويطلبن لزوم المقاعد وربط الأحزمة. متمنيات للجميع وصولا سالما.
بدأن يتفقدن صناديق الأمتعة، يغلقنها كما فعلن قبل الإقلاع.
يمتشقن الطائرة جيئة وإيابا للاطمئنان على الجميع.
- ميس..
ينطقها الدكتور رامي حين مرّت من قُربِه المضيفة الفرنسية.
تجيبُ: وِي..
مبتسمة تنحني نحوه انحناءة كادت تلمس خده. ينظر إليها وهو يهمس:
- ممكن طلب؟
أمام ارتباكها لعدم فهمه تزداد ابتسامتها انجلاءً ، فتنحني أكثر لتلتقط همسهُ.

يمـأمئُ أحمـد بالعربيـة أيضـا، وإبهامـه يشـير إلى فيـه وقـد غابـت كلماته.

- ماء؟

- نعم، رجاءً. إنه مريض.

تسرع إلى المطبخ لتعود بقنينة ماء وكوب فارغ

وهي تردد بخفوت:

- كيف أساعدكما؟

سوف يكون بخير. شكرا يا آنسة

-آليس. اسمي آليس.

- تشرفنا آنسة آليس أنا أحمد.

- أوكِي سيد آميت . إذا احتجتما أية مساعدة فلا تترددا. الكل في الخدمة.

ثم أسرعتِ الخطو إلى خدمة أخرى دون انتظار ردٍّ .

أمام ذهول الدكتور رامي، الذي أدرك للتّوّ أن تعارفا ما حدث بين صديقه وصاحبته، ترتبق شفتاه فيصمت.

الطائرة تحلّق تحت سماء المغرب. هذا ما تسجله خارطة الشاشة أمامهما.

تفصلها عن لحظة تماسّ عجلاتِها والأرض، عشرون دقيقة فقط.

يخطف أحمد إطلالة على الخارج، فيرى الظلام يسود العالم.

مازالت أضواء الأرض لم تعلن بعد عن بزوغها.

يلتفت إلى الدكتور رامي متسائلا:

- هل أنت على ما يُرام؟

لا يردّ.

يستطرد أحمد:

لا تصدق أنك مريض يا رامي.

- لا أدري من المريض حقا.

- ماذا تقصد؟ ماذا حلّ بك؟

- أقصد أن كِلْيَنا يحتاج إلى طبيب.

- أمّا إنِ احتجتُ إلى طبيب فهو معي، لكن تبقى مشكلتك أنت من غير حلّ.

يكتفي الدكتور رامي بالتبرّم دون أن ينبس بشيء.

يدرك أحمد أن صديقه في أزمة حقيقية، فيردف:

- هل أنت جاد؟ كدتَ توقِعنا في مشكلة يا صديقي وأنت العاقل دائما.

النساء مرةً أخرى؟ إنهنّ يعقّدن يا صاحبي.

-لا تبالغْ. أنت لا تعرف فيمَ طلبتُها.

تغرق نظراتهما برهة في الصمت ثمّ يتورطانِ في ضحكات عرجاءَ.

تتلألأ مصابيح الدار البيضاء كنجوم متهاوية على جبين المدينة العملاقة.

يتنهد أحمد عميقا ودقات قلبه تتسارع. يشرئب عنق الدكتور رامي ليلتصق بكتف أحمد. يشاهدان ميلاد لقاء يرتّب له القَدَرُ.

تُدثِّر وجهيهما مسحةٌ ودود. تكشف عن الطفلِ فيهما، الطفلِ الذي

يلعق دمعةً كبيرةً تبلغ الحُلُم عند شفتيهِ.
والغـاً بفكـره داخـل أغـوار تشـبه قبـور الفراعنـة ومومياواتهم المحنطة،
يزفر الدكتور رامي، ثم يرتدي وجهُه سحنةً رسميةً. يقطّبُ وهو ينظر إلى ساعة معصمه. الواحدة
صباحا. الطائرة تحلق فوق مطار النواصر هذه اللحظات، يغمض عينيه ويلقي برأسه إلى الخلف.

أحمد في وضعيته، جامدا لا يتحرك وعيناه جاحظتان.
شيئان يوحّدانِهما في هذا الحين: القلق والترقب.
د.رامي يتحسس صدره. في الوقت ذاته، أحمد يسعل بشدة وكأنه يختنق.
تمتد يده المرتعشة إلى قنينة الماء، فوق المنضدة أمام د.رامي. يملأ كوبا بلاستيكيّا، يكرعه دفعة واحدة.
- سلامتك يا أحمد. ماذا حصل لك؟
- أحسستُ باختناق مفاجئ.
- أهو الربو؟
- لا أظن. ربما من برودة الجو في الطائرة، فقد شعرت بارتعاشة تصحب السعال.
- لا بأس عليك. ذكِّرني لأعطيك علبة أقراص في حقيبتي.
- شكرا صديقي.

ينتهان إلى التطام عجلات الطائرة بالأرض، ويبدأ التأهب النفسي لاحتضان البلد.

يطفح البِشر على الوجوه والقلوب فتُسمَع ضحكات خفيفة و همهمات سعيدة.

بعد قليل وجها لوجه مع الوطن.

تتفتق عبارة من قلب أحمد: آه يا وطن، كم أشتاق إليك! فهل تشتاقني؟

يمسكان حقيبتيهما الجلديتين، يرتدي أحمد سترته السوداء. هي بنفس لون حقيبته.

في حين يرتدي الدكتور رامي صدريته الجينز.

يغادران الطائرة.

لم يريا هذه المرّة المضيفة الفرنسية، ذات العينين الزرقاوين الواقفة بالباب.

لم يردا على تحيتها وهي تنظر إليهما مودعةً. ولم يلتفتا إليها حين قالت:

باي آميت.. .

البوابة رقم ٤ :

ينزلقان إلى رواق طويل مفتوح على ردهة فسيحة، ثم يمران من إجراءات تفتيشية روتينية لإثبات الهوية، ثم منها صوب آخر نقطة تفتيش أمام باب المطار الخارجي. لم يتحدثا طويلا ، كانا يزحفان تقريبا بقدميهما شبه الملتصقتين على الأرض، من كثرة الزحام والتعب. لاشيء غير عاد إلى الآن. بدأ الخوف المسيطِر يتبدد: الله وأخيراً.

يهمس بها أحمد معبّرا عن ارتياحه، وهو ينظر في عينَيْ صاحبه.

-افتحْ هذْ الشنطَة عافاك .

صوتٌ آمرٌ يزعزع الأرض تحت قدمَيْ أحمد.

يلتفتُ إلى الشخص الآمر قائلا:

معايا أنا؟

- إيه معك أنت . تفضّلْ. افتحْ..

وَجِلاً ينحني على الحقيبة السوداء الجميلة، يداعبها بيديه هنيهةَ كأنه نسيَ مفتاحها السريّ.

ثم بدأ الفتح ولسانه المتعثر يردد:

-لاشيء فيها غير بعض الملابس وأوراق غير ذات أهمية، لا تعنيكم في شيء.

يتحسس الشرطيّ بأصابعه محتوياتها، يقلِّبها ثوانيَ ثم يطلب منه الإغلاق والمغادرة.

بسرعة يحمل حقيبته قبل أن يحسن إغلاقها.
تقع بعضُ الأوراق على الأرضِ وكيس صغيرٌ جدا بحجم سبابة اليد، لا يظهر ما في داخله، يجثو على ركبتيه ليلتقطه، قبل الأشياء الأخرى، يبدو أن محتواه الدقيق ذو أهمية بالغة. يهم الصديقان بتجاوز الباب الخارجي، عندما هَوتْ يدٌ ثقيلة على كتف أحمد وأمرٌ أشدُّ ثقلا:
- رافِقْنا.
كان رجلاً قوي البِنية، ببذلة وحذاء رياضيْن، ونظارةٍ سوداءَ.
يسأله أحمد متمتما:
- إلى أين؟
- اتبعنا يا سي أحمد، ستعرف فيما بعدُ.
مستسلما ينظر إلى رفيقه الذي يحملق وقد ألجِم لسانُه.
يلتفت الرجلُ الثاني إلى الدكتور رامي قائلا بمكر:
- أنتَ لا.
- طيب لا أعرف من أنتما وإلى أين تأخذان صديقي؟
- بعض الإجراءات يا دكتور. انتظره في الاستراحة.
- إنه مريض وأنا طبيبه.
- نعرف كل شيء. لا تهتمّ.
تقِر هذه الكلمات في أذنيه فيتمتم مرتجفا قلبُه:
الرجل الغريب خاطبني بِ "يا دكتور". يعنى يعرفُني. أيضا يعرف أحمد. إذن انكشف المستور يا رامي .

يتسمر في مكانه، بينما أحمد و الآخران يقلُّهم سلّم كهربائي إلى الطابق الأرضي.

ينظر حوله. يريد أن يستفهم أحدا من المسؤولين في المطار. لا أحد يمر بجانبه وكأنَّ العالم يتآمر ضده في هذه اللحظة.

يتساءل: أين الناس؟ على غير العادةِ يختفي الجميع.

يجري بسرعة إلى السلم الكهربائي، ثم إلى الطابق السفلي.

يبحث بعينيه في كل مكان.

ينفزع حين يمرّ احتمال اعتقاله في ذهنه.

يجري إلى مكتب الإرشادات أمامه.

- من فضلك سيدتي، دليني على الشرطة هنا؟

- هل ضاع منك شيء؟

يجيب وهو يتلمّظ ريقه:

- صديقي. صديقي أحمد لا أعرف إلى أين أخذاه؟

- كيف "أخذاه" من تقصد؟ لحظة من فضلك.

تخرج من غرفة المكتب قائلة: رافقني.

يتوجهان إلى مكتب الأمن المسؤول عن المطار، وهي تسأل: من هذان؟ يكاد يهرول خلفها ولسانه يردد: لا أعرفهما يا سيدتي.

- تفضل و اشرح لهم مُشكلك.

-سيدي لي صديق مغربي...

...وطفق يشرح لرجال الأمن ما حدث.

يستوقفه سؤال من أحدهم:

- صِف لنا صديقك والرجليْن بإيجاز وأسرع من فضلك.
- الرجل الغريبُ الذي أمسكَ به، في حوالَي الأربعين من عمره، طويل ذو بنية رياضية قوية. حتى لِبسَه رياضيّ. ذو سمرة فاتحة. أصلع الرأس. له لحية خفيفة جدا من غير شارب. والمرافق الثاني أبيض البشرة، قصير القامة قليلا. في حوالي الثلاثين من عمره.
أما صديقي فمئة واثنان وسبعون سنتيما، في الخامسة والأربعين، ضعيف البنية. يميلُ إلى سمرة داكنة. من غير لحية ولا شارب. يضع نظارة طبية و يلبس بذلة سوداء. يحمل في يده حقيبة سوداءَ كذلك.
بعد عدة اتصالات مع الشرطة، تبيّن أن الرجل ليس في قبضة أمنِ المطار.
تمّ إشعارُ المسؤولين بمعلومات الأشخاص الثلاثة، حسب المعطيات الأولية، ثم أمْرٌ بتكثيف البحث من الداخل. خصوصا بعد القيام بتحريات رجحت تعرض أحمد لعملية اختطاف. هذا ما همس به أحد رجال الشرطة لزميله.
يمتقع لونُ د. رامي وأذناه تتلقفان هذه الكلمات، فيهمهم:" ربما لم تبلغهم بعد تفاصيل أخرى. أو ربما علموا بها ويلعبون لَعبتهم هذه أمامي لمراوغتي، حتى أملّ وأغادر.
هل المختطفان من أفراد العصابات التي كانت تتعقّبه؟ ربما قد رافقانا من أونتاريو؟ هل هؤلاء الذين يحدثونني الآن يستغفلونني وواخذيني على قدّ عقلي؟".

ظلّ وقتا طويلا يهلهلُ دون إجابة إلى أن وكزه أحد الرجال في كتفه.
- آسف، كنتُ ساهٍ. إلى أين نتوجه؟
- اتبعنا من فضلك إلى مكتب آخر.
- هل يعقل أن يتعرض صديقي للاختطاف وسط كلّ هذه الحراسة يا سيدي؟
- كل الاحتمالات واردة. نريد منك بعض المعلومات، ثم يمكنك المغادرة.
- لا أبدا، لن أتحرك إلى أي مكان من غير أحمد.
- أنصحك بالتردّد على المطار إن شئتَ. ستتعب.
- أفهمُ من ذلك أن البحث سيطول؟.
لم يتلقّ إجابة.
بدأ د.رامي يُصَعِّد من غضبه مع رجال الأمن.
منفعلا يرد أحدهم: نحن نعلم ما علينا فعله فلا تعطّلنا من فضلك، وافسح المجال لأخرج. افسحْ..
منهارا يقع على كرسيّ ويداه تغطي وجهه. يظل لحظات على وضعه ذاك، ثم يتنهد وينظر حوله. لا أحد في المكتب غيره وعَنكبٍ تائهٍ يدِب فوق المنضدة اليتيمة في الغرفة. كان لا يسمع إلا لِهاثه ومكبرات الصوت في الصالات الأخرى.
اقتعد مكانا قريبا من تلك الغرفة، واندفن فيه من غير حركة يتفرّس المسافرين. كل الوجوه تشبه أحمد، وكل الهامات تشبه المحتجِزَين.

الفصل رقم ٥

في زاوية من زوايا الطابق الأرضي للمطار، قاعتان للصلاة إحداهما للنساء والأخرى للرجال، يشغَلُهما المسافرون الذين أمامهم متَّسَعٌ من الوقت، فمنهم من ينام فيهما ليلة كاملة إلى أن يحين موعد الرحلة، ومنهم من يصلي وينصرف . بعشوائية يصلي المسافرون داخل أو خارج أوقات الصلاة. فالمطار في شبه عزلة عن العالم الخارجي. كل واحد يتصرّف حسب الظروف المتاحة له. العيون تدور في محاجرها، يكتنفها التوتر والتوقع رغم تكثيف الحراسة الأمنية .

في الجهة المقابلة لقاعتيِ الصلاة توجَد دور المياه، ليسهل الوضوء لمن يرغب في الصلاة أو في دخول الحمّام.

الصبح يوشك أن ينبلج، والناس بين صاح و غاف أو ذاهب وآيب. طول الوقت حركة لا تنتهي هنا داخل المطار.

شيء غير مألوف يحدثُ الآن في قاعة الصلاة الخاصة بالرجال. رجلٌ بلباسه التقليدي: جلباب بنّي وطاقية صغيرة تقرفص فوق قُنّة رأسه السمين، يدعو الحاضرين في القاعة إلى صلاةِ الجماعةً. يسال أحدُهم: هل أذّن الصبحُ أيها الفقيه؟ ويسأل نائمٌ منزعجاً من غير أن يفتح جفنيه: كم الساعة الآن؟

يرد الرجل بصوت وقور: لم يتبقّ إلا دقائق عن دخول وقت

الصبح. فلنستغلّها في القيام ببعض الركَعات لنيلِ الأجر والثواب.
يستجيب بعضهم، ويخرج بعضٌ آخر ملتمسا تجديد وضوئه.
يباشر هو صلاته في خشوع ، بينما يقترب أحد المصلين منه في الصف الأول، يلتصق به ويتبعه في قيامه وقعوده، يليه آخر فآخر، وهكذا يلتحم بهما جمع لا بأس به من الناس. ينهمك الفقيه في السجود. يهمس إليه الساجد بجواره "كَيسلَّم عْلِيكْ المَهْدي".
يرتفع صوت الفقيه مُجلجِلا: الله أكبر. ثمّ بسرعة يختمُ صلاتَه.
و ينسلُّ من القاعة حاملا في يده حقيبة صغيرة. يتوجه إلى دورة المياه. يتأخر بعض الوقت ثم يغادر إلى حال سبيله بلباس رياضي أزرق اللون.
بعد دقائق يدخل المصلِّي الثاني الذي كان بجواره في الصلاة، إلى دورة المياه، كهلٌ، حليق الوجه، رشيق الجسم، يضع نظارة طبية كبيرةً و سميكة، تُربِك ملامحَ وجهه.
وفي يمينه حقيبة جلدية سوداء. يظهر بعد فترة بجلباب بني يشبه بِشرته تقريباً وطاقية تكسو رأسه إلى حذو أذنيه. تبدو أكبر من حجم رأسه. يضعها كدأبِ الفقيه الذي كان يلتصق به في غرفة الصلاة قبل قليل .
على بُعد عشرة أمتار من إحدى بوابات الخروج، تقف سيارة جِيب، خلف مقودها فتاة شقراء، تبدو في عقدها الثالث أو ما يفوق بقليل. تضع على شَعرها المنسدل
بعشوائية على كتفيْها، منديلا صغيرا سماوي اللون، موازاةً مع لون

القميص الذي ترتديه وسروال الجينز. وعلى عينيها نظارة شمسية بإطار كبير سماوي أيضا، يحجب نصف وجهها.
تبدو منشغلةً بقراءة مجلةٍ أو كِتابٍ بين يديها. تقلّب الصفحات بتوتُّرٍ واضح . قد تنتظر أحداً يبدو أنه تأخر عنها ممّا أقلقها. هاهي تترجلُ، تدلف نحو صندوق السيارة وتفتحه، تنحني كأنها تبحث عن شيء .
خيوط الشمس الأولى تشع دافئة. إنه يونيو الواقف على الأبواب مودعا فصل الزهور، فاتحا ذراعيه لموسم الاصطياف في الغابات الشاسعة، أو على شطآن البحار وضفاف الأنهار، هروبا من ربقة المدن الخانقة. الوقت هنا خانق أيضا خارج المطار. الفتاة تزداد ارتباكا. تعود إلى مكانها خلف المقود وهي تحدق في هاتفها الخلوي، ربما ستتصل على أحد ما أو تنتظر مكالمةً مهمة، لكن لا شيء من هذا يحصل. يتجلى انفعالها في حركة يدها وتأففها. تعود إلى المجلة التي كانت تقرؤها أو تتظاهر بذلك، تسمع نقراً خفيفاً على زجاج الباب الخلفي. تلتفت بسرعة وعلامات القلق بادية على محياها، تغتسل منها بابتسامة صفراء، إنه الفقيه، يقترب منها باسطا يده وهو يقول:أنا عليّ. وأنتِ الآنسة ليلى، أليس كذلك؟ تدسّ يدها في يده مصافِحةً وهي تقول: بلى، لكنْ لا أذْكر أننا تقابلنا؟ ثمّ تفتح له الباب الخلفي، تضع حقيبته الصغيرة في صندوق السيارة. يحرك رأسه بالنفي ويأخذ مكانه. تسأله بعض الأسئلة. فيطمئنها بإيجاز. تتكاثر التفاتاته نحو أبواب المطار.

فتسأله الفتاة:

- هل سننتظر طويلا؟

- لا، بضع دقائق فقط وسيكون بيننا. لا تقلقي.

- كيف مرت الأمور؟

- سلِسة. لا شيء مُلفت.

- من الرجل؟

-من تقصدين؟

- هذا القادم نحونا.

- إنه هو. لا تهتمي سيجلس بجواري.

تفجّر ضحكة من عمقها. قائلة:

أضحكني منظره كأنه أحد مروّضي الثعابين بساحة جامع الفناء.

- إنها ظروف الشغل.

- أين حقائبه؟

- واحدة فقط لا يفرِّط فيها كحياته. تلك التي يحملُ. هيا لا نضيع الوقت في الحديث. استعدي لنخرج من هنا بسرعة من فضلك.

يقترب الرجل الرشيق، ذو الجلباب البني بخطى سريعة. يركب السيارة من الباب الخلفي المفتوح. تنطلق الـ"جيب" بسلاسة إلى أن يمتصها الطريق السيّار.

تقول الفتاة:

- الحمد لله على سلامة الوصول يا سي أحمد، يمكنك الجلوس بجانبي إن شئت.

- أجـلْ، في أول محطـة اسـتراحة. حتى تظـلّ الأمـور طبيعيـة.
- ماذا عن الشخص الذي معك؟ كأنّي أُخبِرتُ بقدوم شخصين.
- نظرا للظروف الطارئة ظل في المطار. لدينا سيارة أخرى. لقد تغير التخطيط فجأة. كنا متوجهَين إلى الجنوب.

يسود الصمت.

عنـد أول اسـتراحة، يأخـذ أحمـد مكانـه الجديـد ثـم يسـتأنفون سفرهم.

يتنهد أحمد طويلاً ويده تحت ذقنه شاردا ينظر في كل اتجاه. يُدلّي بصره من النافذة، ثم يُعلقه بين سحابات قاتمة، تزداد التصاقا بعينيه كلما ازدادت سرعة السيارة.

البوّابة رقم ٦

-دكتور رامي.

يلتفتُ إلى مصدر الصوتِ، راسما بجسمه نصف قرص. كان صوتا نسائيا.

يتفرّسُ الوجوهَ حوله .

لا يوجد سوى رجل وسيدتين عن يمينه، و سيدة أخرى في زاوية قريبة، لا أحد يظهر عليه الاهتمام به.

تقترب منه السيدة ذات الزاوية ، تمد إليه علبة بسكويت قائلة بلكنة أمازيغية وهي تكاد تلتصق به:

- يمكنني مساعدتك بشرط أن تظل هادئا.

- كيف ذلك؟ و من أنت؟

- أحمد بخير. شاركني البسكويت رجاءً، امسكْ هاته ثم اتبعني بعد ما أخرج من هنا. سيارتي حمراءُ، أصغر واحدة في أقصى الموقف.

- طيب، سأغيّر البوّابة وألتحق بك. أتمنى ألا أنخدع.

تضع في فمها قطعة حلوى وهي تدلف نحو الباب الخارجي. مُدندنةً بإحدى أغاني ناس الغيوان :أهْل الحالْ ياهْل الحالْ إمْتى يَصْفَى الحالْ؟. غير مكترثة بنظراتٍ تلاحقها. تُسرع إلى سيارتها، تفتح الباب الخلفي، تضع حقيبة يدها على المقعد، ثم تعود إلى مكانها خلف المِقود متأهّبة للقيادة، تشغّل المحرّك وتنتظر. المرآة تعكس

البوابات الثلاثَ. تترقب من أيِّها سيطل الدكتور رامي. ها هو يتفحص بعينيه سيارات الموقف أمامه. تطلق له إشارات ضوئية من خلف. يستجيبُ بسرعة، يسبقه صدره الأشعَر، البارز خلف قميصه الضيق. يفتح الباب ويجلس بجوارها قائلا:

- قبل التحرك من هنا، قولي من أنتِ؟ وأين أحمد؟

مبتسمةً ترد وهي تتلفّتُ حولها:

- هل أنت خائفٌ مني يا دكتور؟

- من فضلك اشرحي قبل أن تديري المقود.

- طيب سأخبرك ونحن في طريقنا إلى أول مقهى.

- أوكي، أسمعكِ.

- هند، عمري سبعة وعشرون سنة. من مدينة صفرو. مهندسة. خبيرة تصميم مجوهرات. وأشاركُ بها في معارض دولية.

- يعني من تجار الذهب واللآلئ.

- والأحجار الكريمة.

- فهمتُ الآن طبيعة علاقتك بأحمد.

- عَاليك نور. تضحك ضحكة لم يعرها اهتماما.

- ها هو مقهى. توقفي هنا من فضلك.

- أوكي.

يقتعدان مكانا مفتوحا على حديقة صغيرة، وبسرعة يأتي النادل بالطلب: قهوة وشاي.

تُخرج هند ما تبقى من بسكويت من جيب حقيبتها. تضع القطع

على الطاولة أمام ضيفها.
تمتدُّ يد د.رامي إلى فنجان القهوة فقط. يرشف منه رشفتينِ متتاليتينِ ثم ينظر إلى مضيفتهِ. فينطلق لسانها:
- أستاذ أحمد صديقي منذ ثلاث سنوات، التقينا ذات صيف في معرض للمجوهرات في فيينا، كان أنيقا جدا، ذكيا جدا و لَبِقا جدّاً...جدًّا.
تفرجُ عن ابتسامةٍ حالمةٍ .
يقاطعها:
- عفوا يا آنسة، أظنّ أن الظرفَ غير موات لجردِ تعارفكما. باختصار أين أحمد؟ وهل هو بخير هذا ما يهمّني الآن. طمئنيني من فضلك.
-اطمئنّ يا دكتور هو بخير وسيحادثك بنفسه فلا تقلق.
- متى وأين؟ هل لديكِ رقمه الجديد؟
- إن شئتَ أخذتك إليه، لكن ليس الآن. هو بخير هذا الأهم. معه من يهتم بخدمته.
- طيب، أشكركِ يا هانم وآسف على حِدّتي.
- نحن من نعتذر عمّا حصل.
أحمد يحكي دائما عنكَ كلما تحادثنا عبر الهاتف أو عبر الأنترنت، هو يحبك جدا.
- ها أنتِ ترينَ. فماذا يجبرني على هذا القرف لولا حبي له؟ ومستعد للقيام بأكثر من ذلك. المهم أن يكون بخير.

- دامت صداقتكما.
- شكرا لك. وأنا أيضا لي بعض الانطباع عنكِ قبل رؤيتكِ.
- حقا؟ يسرني سماع ذلك.
- ليس قبل أن تعرفي نوع الانطباع. قد يكون سلبيا.
تجيبه بابتسامةِ الواثقة من أمرها:
- إنّ الذي حدثك عني لن يعرّي عيوبي. لأنه بكل بساطة يحبني.
- الحبيب للحبيب موطن. فعلا فقد أسهبَ ذات حوا رفي محاسنك.
تبادلا الاعترافات لوقت من الزمن تبدد خلاله بعض التوتر.. كانت تبدو سعيدة وهي تلهيه بالكلام. كانت تتحدث كمذيعة جميلة خلف آلات التصوير. مُصِرَّةً على إظهار مفاتنها كلها، لإغواء المستمع والمبصر، تقول:
- أنت كاتب موهوب. وطبيب ناجح. لك أسرة جميلة. تحب النساء ولا تبني علاقات حقيقية معهن إلا في خيالك.
تفتعل ضحكة طويلةً مستفزّة.
فيقطّب معقّبا: ومن قال لك إني أبني علاقاتي في الخيال فقط؟
- طيّب هاتِ ما لديك يا دكتور.
- أنت متحدثة ذكية، تستطيعين طيّ مستمعك بالتذاذ تحت تصرفكِ. هذه نرجسية خطيرة.
تركزُ نظرها في عينيه. محاولةً استقراء خلفيتهما. كانت تبتسمُ بمكر وهو يتحدث:

- قال إنكِ امرأة مهيمنة. لك ذكاء تُحسنين توظيفه في الوقت المناسب.

- ثم ماذا؟ أراهن على أن في جعبتك أشياء أكبر.

- نِهمة إلى المال والشهرة. لم تتزوجي بعد، بالرغم من كثرة علاقاتك.

تنظر إليه غضبى. فيستطرد: الخيالية.

يصطنعُ بخبث مماثل، ضحكةً طويلةً .

- أنت ماكر يا دكتور.

- ليس أمكر منك عزيزتي.

- و مشاكس أيضا.

- بس لذيذْ.. ثم يضحك عاليا.

تقابل ضحكته بابتسامةٍ باردة وهي تنهض مستأذنةً .

- إلى أين؟

- إلى الحمّام.

بعد دقائق تعود وقد جددتْ زينتها. وربما أهرقت قارورة عطرها على شعرها و حول رقبتها.

يسلط إشعاع عينيه على سمرتها المثيرة وطفرة رضا تعفّر وجهها الجميل. مستمتعةً بحديثهما السابقِ، تواصلُ:

- أكلُّ تلك الصفات أنا؟ بعضُها لا يعنيني. أظنها مبالِغة .

تحوّل بصرها عنه وابتسامة خفِرة تعلو محياها وهي تهمهم:

-كم أنت فشّاء أسرار يا أحمد. أحيانا بغلوٍّ يا صديقي.

تضحك ملء شدقيها قائلة: بعض الرجال من طينتك وُجِدوا ليحَبُّوا. جميلٌ ومُتعِبٌ أنتَ يا أحمد.

تلتفت إلى رامي مسهِبةً: أراك يا دكتور، تحفظ كلامه عن ظهر قَلب.

- أحفظ منه فقطْ ما يهمني.

- أمتأكّد أنت؟

تتقاطع نظراتهما لفترة، ثم يحوِّل كل واحد وجهه عن الثاني، وقد اقتنعا بقدراتهما

الخارقة، لمحاولة الهيمنة على الآخر.

البوابة رقم٦

- حافظي على السرعة المعقولة يا ليلى. الرادار الآلي يدوّن سرعة العربات العابرة من هذا الطريق.
- لا تقلق يا سي أحمد. لا أتجاوز المائة كلم/س.
- وأنت يا شماليّ، قد قمتَ بعمل جبار لن أنساه لك أبداً، مع أنك لم تقل شيئا منذ ركبتَ السيارة. أظنك ما فتئتَ مندمجا في دور الفقيه.

ترتفع ضحكات ليلى والشمالي من التعقيب الساخر لأحمد.

يرد عليه الرجلُ و عيناه تدمعان من الضحك:

- العفو يا سيدي لم أقم إلا بواجبي.
- أفكر في تأمين اتصال بالدكتور رامي، أريد أن أطمئنه بنفسي. يعِزّ عليّ أن يظل

مشوّش البال.

- سوف نقوم بذلك يا سيدي كن مطمئنا.
- لن يرتاح بالي حتى ألتقي به.

يصوّبُ إليه الشماليُّ نظرةً طويلةً دون أن ينطق بشيء. وأحمد منشغلٌ عنه مهمومٌ.

تسير الجيب في طريقها بمرونة. تتوقف بين الفينة والأخرى. عند محطات الأداء أو عند محطات الاستراحة، لاحتساء مشروبٍ أو

قضاء حاجة. ثم يستأنفون رحلتهم.

عند إحدى المحطات ، ينزل أحمد ويده على جبينه. يتجشّأ و هو يقلّبُ بصره بين مرافقَيْه قائلا:

- تعبت جدا و أحتاج إلى مكان هادئ قريب من هنا.

كمن فُتِحَت له طاقة الحظ يقول الشمالي:

- ما رأيكما في مدينة شفشاون؟

ترد ليلى:

- من أجمل ما رأيتُ، ولو أني لم أمكث فيها سوى ساعتين، زرتُ خلالها منابع "أقشور" الساحرة.

يسألهما أحمد ويده تداعبُ قفل باب السيارة:

- كم من الوقت يفصلنا عنها؟

- قرابة الساعتين والنصف من الآن.

- أحتاج إلى مكان هادئ. لم أعد أحتمل.

يلتفت إلى ليلى سائلا:

- كم المسافة المتبقية يا آنسة؟

- ما ينيف عن ٢٠٠ كلم . نحن الآن على مشارف شاطئ مولاي بوسلهام. ما زال أمامنا متسع من الوقت. ما رأيكما في الطريق الوطني؟

- فكرة حسنة. يقول الشماليّ لنندمج فيه من مولاي بوسلهام إلى سوق أربعاء الغرب. ومنه نسلك إلى مدينة وزان فشفشاون،إني

أعرف الطريق جيدا. وقد نتناول شيئا من السمك، أو الفواكه الطازجة.

يردف أحمد متنهّدا:

- لا مجال لذلك. فلنسرع قبل أن يداهمنا المساء.

يؤكد الشمالي وعيناه تلمعان:

- سنجد كل تلك المبيعات في الشاون وكل ما تعشقه العين. إنها تحفة فنية.

تبتسم ليلى معقبة:

- أو كعروس بكر.

- أظنني قلتُ لكما لستُ في مزاج الفسحة.

يقول الشمالي متجاهلا ردّ أحمد:

-أنا من وزان. لكن عطلي المدرسية كنتُ أقضيها في مدينة الشّاون، رفقة أسرتي، لا نبغي عنها بديلا.

تلتفت إليه ليلى متحمّسة:

- بما أنك تعرفها جيدا، ستكون دليلنا. هكذا نضمن الاستمتاع بكل وقتنا فيها.

- أنتما في قبضتي لا فكاك.

تلتمع عيناه وهو يقذف عبارته تلك.

أحمد كان ينفث زفيره بصوت مسموع . أما ليلى فمستمتعة بالتحليق على بساط الحلم والذكرى . تواصلُ متأملةً:

- سمعتُك تسميها قبل قليل بالشّاون بدل شفشاون..

هل مِن سبب معين؟
ينخرطان في الحديث. وأحمد راغب عن مجاراتهما.
السيارة تسابق الزمن إلى وجهتها. وأحمد مضرب عن الكلام.
يسهب الشمالي في ذكر مناقب المدينة غير عابئٍ بحالة أحمد الصحية:
- جاءت تسمية المدينة بناءاً على الجبال التي تلفها من كل حدبٍ، بحنوّ كأمٍّ تحضن طفلها. كلمة شفشاون تعني انظر إلى قرنيْ جبلٍ أو مرتَفَع.
والشاون أجمل وجهة للاستجمام والتمتع بالهدوء، هروبا من الضجر والفوضى العارمة في المدن.
تقاطعه ليلى فجأةً، وسيارتها تلفّ حول مدار واسع: قد ذكّرتني بأجمل اللحظات مع أمي الله يرحمها.
يسود الصمت. ثم يقولان معا: الله يرحمها.
تغمغم بالدعاء.. ثم تستأنف:
كل ما نرنو إليه هو الاستمتاع ببعض الراحة فقد تعبنا.
يرد الشمالي نشوانا كأنه يزف ابنته إلى عريسها:
كل الجمال والأمان اقْتُرِنا في هذه القلعة. لقد اتخذها رجال المقاومة حصنا
لمقاومة الاحتلال الاسباني لشمال المغرب.
يفاجئهما أحمد بردٍّ:
وقد أختفي فيها نهائيا. هكذا أمتنع منكم جميعا إلى الأبد.

تنظر إليه قائلةً: ممن؟

- ألا تدركان أني مُنْهكٌ ولا أرغب في سماع شيء؟ أووفْ

يقولان معا: نعتذر أسي أحمد.

يسود الصمت لفترة يسيرة ويواصل الشمالي:

كنا نعمل على درء التوتر بإدماجك في الحديث لكن لم نفلح. نعتذر مرة أخرى.

يسود صمت مريبٌ. يظل خلاله أحمد يتقلّب يمنة ويسرة في مكانه.وهما ينظران..

لم يجرؤ أحد منهما على قول شيء. ثم فجأةً يسأل:

هل العقار في الشاون جيد؟ مثلا شقة صغيرة من ثلاث إلى أربع غرف.

يردّ الشمالي بصوتٍ مغمورٍ بالظفر.

- سوف أصلك بأحد السماسرة الكبار، هو من معارفي. سأوصيه ليهتم بطلبك سيدي لا تشغل بالك.

- اتفقنا.

تصرخ ليلى:

- واوْ الأمر جاد إذن. هنيئا لنا يا سي أحمد. إني أحجز من الآن شقتك المقبِلة.عندما تسافر. سأعتني بها.

- أسافر؟ أنتِ تتحدثين ببساطة وكأنّ أموري تبدو لك عادية.

يشعِل سيجارةً بسرعةٍ، يمتص دخانها طويلاً، ثم ينفثه حوله بعصبية.

يقول الشماليّ مستغربا:

- ما رأيتك تدخن أسي أحمد من قبل.

يمزُّ الدخان طويلا، ثم يزهِقه من شفتيه خيوطا مستديرة وهو يقول:

و ها أنت عشت حتى رأيتَني أحترِق مع التبغ. سجلْها في مذكراتك.

ينظر إليه الشماليّ سريعا ثمّ يحوّل نظره إلى ليلى، يتبادلان نظرة تكتنز كلاما كثيراً.

يُطبق الصمت على الجميع من جديد.

يمزّ سيجارة أخرى وهما يرقبانه دون أن ينبسا ببنت شفة..

يلاحظ صمتهما. فيستطرد وكأنه لم يقطع حبل الكلام من قبل:

- ليس بعْد يا آنسة. إنّها مجرّد فكرةٍ برقت فجأة، لم تنضج بعد في رأسي.

- أشجّعك ولن تندم. شفشاون حلمٌ جميل.

- سوف أفكّر بجديةٍ في اقتناء ملجإ صغيرٍ على أحدِ جبالها. آوي إليه وقت الحاجة.

يتدخل الشمالي:

أنا في خدمتك سيدي، اعتبرْ نفسك صاحب أجمل بيت هناك.

ممعنا النظر في وجهه، يمسك أحمد نظارته بالسبابةِ والإبهامِ في حركةٍ لا إراديةٍ وهو يقول:

-هل ستضعني تحت إقامة جبرية عندك أم ماذا؟ الظاهر أنّي وقعت في يد سمسارٍ

كبيرٍ في التهريب البشري. وأنا أول ضحاياك على ما يبدو.
- حاشا آ سي أحمد أنا رهن الإشارة.
- إشارة منْ؟ والله أجزم أن نظراتك مريبة أحيانا يا شماليّ وكأنك مُقَنَّعٌ.
يدرك كنه كلماته القوية فتتصلّب شفتاه. ينظر إليه طويلا ثم يخفض بصره دون أن يجرؤ على الردّ.
متجاوِزا تلك النظرة الجافّة، يقول أحمد:
- ما بك تنظر إليّ هكذا؟ أنسيت نفسك؟
- لا لم أنس أبدا أسي أحمد لا نفسي ولا غيري.
- ماذا تقصد؟
- لا اقصد إلا ما قصدْتَ أ سي أحمد.
- أنا أكره التطفل، وأرى جرأتك مبالغَة، هذا ما في الأمر.
-إذا لم تعدْ ترغب في خدمتي يا سيدي، الغِ العقد الذي بيننا. دون المزيد من الإهانات رجاءً.
تقاطعهما سيارة فائقة السرعة، تربكُ ليلى فتزيغ عن الطريق. يتدخّل الشماليّ بسرعةٍ قائلا:
- الآن بدأت مضايقات مهرّبي "الكيف" توقفي لأقود بدلاً عنكِ.
- ليس الآن. عندما أشعر بالتعب سوف تقود أنت. لا تهتم.
تتقاطع نظراتها ونظرات أحمد بسرعة فائقة . تقرأ فيهما ارتياحه لقرارها.
تتنفس عميقا وهي تداعب المقود بأناملها. وكأنها تقول له: أنا أيضا

بدأت أضجر.
الشكّ بدأ يخامر الجميع. وهذا أمرٌ لا يُطَمْئِنُ. سَرى توتُّرٌ غريبٌ بين كلِّ الأطراف.
يتدخل الشماليّ مرةً أخرى، غير عابئ بملاحظة أحمد، ربما ليطمس تلك النتوءات التي طفتْ على السطح، أو لغرضٍ في نفسه:
- برافو ليلى. تعجبني المرأة الشجاعة.
تكتفي بابتسامة جميلة. ثم يقول أحمد مداهنا:
أ اسمك الشماليّ أم كنيتك؟
- اسمي مولاي علِي.
يعقبّ أحمد:
- شايلّاه آ مولايْ عْليّ بُو قُبّة.
يتكدّر الشماليّ من سخرية أحمد مرة أخرى. فيعبس مطْبِقا شفتيه. ينتزع أحمد سؤالا من بين ضحكته المختنقة وسعالِه المتواصل:
- لماذا تُنادَى بالشماليّ مع أنك جبليّ؟
يرد بصوتٍ مغبونٍ:
- أهل الداخل من يسموننا هكذا.
- تقصد بالداخل سكان المناطق الوسطى، أليس كذلك؟
- تقريبا نعم.
تفاجئهما ليلى بسؤال:
- هل ترغبان في أكل التين الأخضر؟

- أجلْ.

انظرا إلى تلك الفتاة ذات القبعة الحمراء. تلك التي تحمل سلة القصب.

بنبرة مازحةٍ يقول أحمد:

-هل ننظر إلى التين أم إلى الفتاة؟

يعقب الشمالي:

- لكما التين ولي الفتاة. فإني عازب أرغب في الزواج.

- نرسل إليها ليلى، لتسأل عن عنوان أهلها، فإذا اقتنعتْ بك نطلبها لك.

مدركا لهجوم أحمد:

- ليس بهذه السهولة. لستُ مستعدا الآن. على العموم شكرا.

بحماسٍ تضْفي ليلى مرحَها، وخصلات شعرها تراقص النسيم، حاجبةً بعض وجهها:

- الفتاة جميلة. وجنتاها بلون قبعتها. توكل على الله ودعْنا نحتفل.

تقترب السيارة منها. تركض إليهم بسلتها وهي تبتسم:

- خذي سيدتي، أحلى تين جبليّ .

- نريدك أنت ما اسمك؟

تُصدرُ شهقةً وهي تجري بعيداً، يدها على مئزرها الصوفيّ الأبيض المخطط أفقيا بالأحمر.

يتعقبها سؤال ليلى: لا تخافي. ما اسمك؟

من بعيد تنطق باسمها. يعيده الصدى من حولها. تجري فتسابقها

ضحكاتها العذبة:

-ارْحَيْمو

يهمس عليٌّ:

- شهية يا بنت بلدي.

يرمقه أحمد بنصف عين، ثم تنطلق السيارة إلى حال سبيلها. وهواجس أخرى تشمّر عن سواعدها.

البوابة رقم٧

متبرّما ككلّ مرة يعيد الدكتور رامي سؤاله:

-أين أحمد؟ صِليني به حالا.

- لنعدْ إلى السيارة.

يقومان بسرعة وقد تركا ثمن القهوتين في صحنٍ صغيرٍ على الطاولة.

يرتمى أحد المتسولين على بقية البسكويت، يلقيه في حنجرته بسرعة مفرطة. يأتي النادل ناهرا: سِيرْ فْ حالك ما كتحْشمْشْ يا لطيفْ .

في السيارة تطلب هند أحد الأشخاص على هاتفها، قائلةً:

- ألو معك شخص يرغب في التحدث إليه.

وقبل أن تسلم د. رامي الهاتف تقترب منه موشوشةً:

- لا تنطق اسم أحمد.

- حاضر.

بارتباكٍ يمسك هاتف الفتاة وهو يقول:

- ألو أنا رامي، من معي؟

صوت مجهول يحادثه. يطمئنه ويضرب معه موعدا بعد ساعة.

يشكره رامي ويُقفَل الخط.

- لماذا لم يحدثني أحمد؟ لماذا هذا التماطل الممل؟

- لا تنزعج يا دكتور. تلك وسيلة لحمايته لا غير. بعد دقائقَ قليلةٍ

ستتحادثان.

- من الرجل؟

- حارس شخصي.

يصمتُ لحظةً ثم يسأل:

- كيف عرف بعودته؟.

- أنا من دبّرت ذلك باتفاقٍ مع أحمد. من إحدى مقاولات الخدمات الاجتماعية الحُرة. الحارس الشخصي ورفيقته المكلّفة بسياقة السيارة، لا يعرفان التفاصيل. فاطمئنّ حضرتك.

- هل متأكدة أنْ لا أحد يعرف؟

- ربما آخرون يعرفون.

- آخرون !؟

يسود الصمتُ برهةً. ينحني لتناول قنينة ماء.

يرشف منها بضع رشفاتٍ. متجهما ينظر إلى الطريق الطويلِ. ثم يقول:

- الظاهر أنكِ تخفين عني أشياء.

- سيحين الوقت لتعرف منه كل شيء.

- متى سيحين هذا الوقت؟ ما هذا الطوق الذي تخنقونني به؟

يزفر بشدقيه كأنه يطفئ شمعة مشتعلة أو يزْند نارا أمامه.

-أنا لا أملك إلا مرافقتك والاعتناء بك حتى يأذن بلقائك. بعد عشرين دقيقة سيرِنّ الهاتف، أعرف دقة مواعيده.

يهمهم بكلمات غير مفهومة. يلقي برأسه المتعب على الكرسي من

خلف.

يحملق في سقف السيارة. كالباحث عن منفذ بين قتامة لونه. يجدد النظرَ إلى ساعة يده أكثر من خمسِ مراتٍ. ينفث ما في صدره وعيناه مغمضتان. تُسمَع فرقعة أصابع يديهِ. ثمّ يرن الهاتف، يقفز من مكانه، يفتح الخطّ:

- ألو أحمد؟

- رامي حبيبي أنا بخير. أعتذر عن كل شيء. سوف نلتقي قريبا فلا تضجرْ يا صديقي.

- طيب أخبرني عن مكانك؟ احكِ يا أحمد. ماذا حدث في المطار؟

وبدأت الأسئلة التي لم تنته من رامي، ناسيا نصيحة هند بتجنب النطق باسمه. ينغلق الخط فجأة ولم يأخذ منه أية معلومة عن مكانه.

يعض على شفته، ثم ينظر إلى الفتاة طويلا دون أن ينطق بشيء. تبسُم عيناه لأول مرة منذ لقائهما. يعيد رأسه إلى وضعيته السالفة على المقعد. ينظر إلى أعلى،

يداعب بأصبعه دعسوقة جميلة، دخلت من النافذة، تحمل على ظهرها لونين زاهيين.

و بنبرة هادئة يقول: أنت لطيفة جدا يا آنسة.

مبتسمة تقول: لا بل أنا هند جدا، لست لطيفة. ويدها تشغّل المحرك.

الشمس الملتهبة تهرقُ بعض حرّها على وجهيهما، رغم جرعات هواء

منعش تصافح الجسدين المرهقين من حين لآخر. السيارة تلحس الإسمنت الساخن. ورائحة المطّاط تصل أحيانا إلى أنفيهما. الوقت يميل إلى ما بعد الظهيرة ومازال الجو ملتهباً.

أصابع يده تداعب ما تبقى من أزرارٍ مغلقةَ في قميصه. تكاد حلمتا صدره أن تقفزا من الفتحة المشرّعة.

يردّد دون أن ينظرَ إلى هند: الحرُّ قاهرٌ، وكأنه يبرر ما يقوم به من فتح أزرار قميصه. تدندنُ مع أغنية صادحة من الراديو، دون انتباهٍ لضيفها الذي يتحدث بصوتٍ مرتفع قليلا:

- زُمرُ الناموس تصول خارج السيارة. تنفصل وتلتئم من جديد. بعضها يهاجمُ الآن. طنينها مزعج. تبدو متوترة هي الأخرى.

- ولا يعزب عن أحد خطورة لسعاتها العجيبة. أخشى أن تنفذ إلينا يا دكتور.

ثم تستطرد: ربما تريد منك تشخيصا لفصائل الدم التي تحمل.

يكتفي بالتبسّم وهو يقول:

-يمكنك إغلاق الزجاج وتشغيل المكيّف.

- حاضر.

يصمت هنيهةً ثم يقول: أما آن لهذا الأوان أن يحين بعدُ، أريد أن أرتاح قليلا.

بجدّ بدأت أفكر في العودة.

تهمهمُ: وأنا بجد، أفكرُ في شيء يشْغَلك بعض الوقتِ، لأرتاح أيضاً.

تلتفت إليه قائلةً:

- تـروق لي تعـابيرك: أمـا آن لهـذا الأوان أن يحـين بعـد.الأدباء حقـا رائعون.

كأنه لم يسمعها يلتفت إلى الجهة الأخرى وهو يزفر.

الجـو بـدأ يتلطّـف. تـداعب يـدها أقراصـا موسـيقية أمامهـا. تُشـغِّلُ إحـداها بسـرعة. كانـت أغنيـة رومانسـية لسـيلين ديـون مـن فـيلم تيتانيك. وهي تردفُ:

-وهل ستذَر صديق عمرك هنا دون أن تطمئن عليه يا دكتور؟

- هو الآن في بلده لا أخشى عليه من شيء.

- أنت أيضا في بلدك. وأنتَ أدرى بخيوط القصة كلها.

- ماذا تقصدين؟

- أقصد أنك تعرف كل شيء، ونرغب في تعاونك معنا.

- لم أفهم ما تقصدين بِكلامك.

ينظر إليها بارتياب. وهي تردد الأغنية برخامة صوتها.

ثم تتمايل منتشيةً. تميل عليه قليلا وهي تقول: إني أمزح معك .فلا تأخـذ كلامي على محمـل الجـد. ألا تـرى حضـرتك أن الجـو لطيـفٌ مَرِحٌ؟

- مجنونة.

تنطلـق السـيارة في الطريـق الملتـوي مثـل أناكونـدا عملاقـة، تحفُّـه أشجار باسـقة ومـروج دائمـة الخضـرة، بـين جبـال مترامية القمـم. يسأل:

- إلى أين؟

ترد بحماسٍ مفرطٍ :

- إليه طبعا .

- أنتِ أجمل نساء الأرض.

- أعرف ذلك.

ثم تصْدِر ضِحكة جميلة كمعزوفة نايٍ.

البوابة رقم ٨

الديَكة ترتل تسبيحاتها المتواصلة. كانت جدتي تقول: الديك يؤذن في مواقيت الصلاة كالإنسان تماما. إنه يتعبد مثلنا. هاهي ديَكة البلدة تتصايح الآن، معلنة عن انبلاج الصبح. الحركة في البلدة تبدأ مع صياح الديَكة. البيت أيضا يعج بالحركة. أمي أول من يستيقظ، تتوجه مباشرة إلى المطبخ. تُخرج طست الحليب من الثلاجة. تضعه في إبريق على النار. لدينا فرن غازي جميل، جلبه والدي يوم ختان أخي عمر، من المدينة، بطلب من جدتي(أمِّه). كان لا يرفض لها طلبا. هي الدفاع المؤازر لأمي. والضامن الأساسي لحقها كلما حاول أبي هضمه. حتى باتت تشكّل قوة مقلقة لأبي.

هي صوت البيت المسموع. أمي الصوت الذي لا يصعد من الحنجرة إلا ليعود إليها. لا يصل عادةً، حتى في تربية إخوتي فأمي من غير تأثير كبير. عكس ما يحدث مع والدي. مجادلتُه في أيّ أمر تُعَدّ نشازا، يستلزم عقابا يصل أحيانا إلى النهر الشديد أو القطيعة ليوم أو أكثر. لا أحد يقف في وجه قراراته إلا جدتي بقوة شخصيتها، كانت ملاذنا الأخير. كنا نلجأ إليها للإدلاء بطلباتنا المتواضعة.

في عُرْفنا الرجل الأسْودُ لا يتزوج من امرأة بيضاءَ. يُعَد هذا انتقاصا منها. والعكس صحيح أيضا، فالأبيض لا يرضى الزواج

بذات السمرة الداكنة. لذات السبب. فمازال الأهالي في بلدتي، لديهم هذه النعرة العنصرية. أهو راسب هجين من رواسب المحتل الأجنبي للمنطقة حرّف الفِطرة، أم هي حيلة من أساطير الجبال انطلتْ عليهم؟.

فالإسلام الذي هو الدين الرسمي للبلاد، لا يفرق بين أبيض ولا أسود. لكن معظم الأهالي في هذه المناطق نادرا جدا ما يخرقون هذا العُرف، منهم أبي الأسود. الذي ظفر بناصعة البياض أمّي، مع سعةٍ في العينين و اخضرارٍ آسرٍ.. ليفرض عليها حظر التجوال خارج البيت إلا رفقته أو رفقة جدتي. وهي سعيدة بذلك. كم مرة فاجأتهما يتهامسان وهو يدس شيئا في يدها، لتتناوله بعيدا عن الأعين. تأخذه منه وابتسامة عريضة تدثر وجهها الجميل.

كان شديد الغيرة عليها. وحق له ذلك فقد كانت فاتنة. خفيفة الحركة في البيت،

كحمامة تدرُج في المراح الفسيح. هكذا كان يناديها: حمامتي البيضاء، حين يتأملها بعينيه وهي تتنقل بين الغرف. وأحيانا تصدر موالا أمازيغيا، أفهمُ منه حنينها إلى قريتها الجميلة تيشكا، وإلى صويحباتها رفيقات الذكريات.

أبي رغم د كنته الشديدة فقد كان طويل القامة قوي البنية، مقبول الشكل رشيقا وأنيقا. كان يشبه جدي ابراهيم الدآدْسي الأمازيغي. نسبة إلى بلدة بومالن دادس المجاورة لقلعة مكونة و مدينة تنغير ، التي استقر فيها بقية حياته مع أسرته، لظروف

العمل مع المخزن.

كانت أمي تقول:عن أبي إنه يشبه تامّنْتْ أي العسل. وهذا يعني الكثير في علاقتهما. لأن من تبخس عِشرة زوجها تشَبّه بالقارِ أو القطران. أمي كانت تحب أبي. وهذا الأجمل في الحكاية.

أنجباني أول باكورتهما من سبعةِ أبناء. كانت لا تذهب إلى المستشفى لتضع حملها.

كان أبي يأتيها بمولّدتين من مدينة ورزازات. تابعتين لوزارة الصحة. تقومان بعملية التوليد بضمان صحي. كان أبي يشتغل كاتبا في مصلحة إدارية تتمركز وسط البلدة. تابعة للسلطة المحلية. مما أعطاه ميزة مضافة بين أهالي مدينتنا تنغير. موطِئ العيون والأنهار الدفاقة وبساتين اللوز والتفاح. سكانها خليط من سود وبِيض. يتكلمون الأمازيغية والعربية. معروفون بالهدوء ودماثة الخلق. ومن شيمهم الكرم، دأْب أهل الجنوب.

كانت جدتي تحكي عن مولدي قائلة:

- يوم جئتَ إلى الدنيا، كنتَ كفلقة من القمر. قلنا هذا الطفل يشبه "زَيْنَة" أمَّه. جميل مثلها. كان ذلك يغيظ والدك.

تسترسل في الضحك وهي تقول:

بعد شهرين بدأت تنضح بشرتك بعض السمرة على ذلك البياض. مع ظهور لون جميل لعينيك مثل عينيْ أمك.

فتهلل وجه أبيك ذات صباحٍ وهو يصيح: الآن نعم. ابني عبد الله دادسيٌّ قحّ.

كنا نضحك من تعقيباته تلك.
أتذكّرها الآن وأستشعرُ دفء يديها وحنانها. رحمها الله.
مات والدي قبل جدتي، بمرض فاجأه ونحن السبعة صغار. كنت لم أبلغ الحلم بعد.
كفلنا خالي الحاج لحْسن إلى أن دخلت الجامعة. ثم حاولت الاشتغال كومبارس في التمثيل بمدينة ورزازات. لمساعدة أمي في الحفاظ على عُودِنا مستقيما. إلى أن حصلت على دبلوم الدراسات الجامعية في العلوم والتقنيات، من كلية العلوم والتقنيات بمدينة مراكش. ثم كرست اهتمامي للبحث عن عمل بالقرب من مدينتي الصغيرة تنغير.

البوابة رقم ١٣

ورزازات المدينة الفنية الجميلة، أو هوليود المغرب، كما يسميها هواة الفن السابع.

تتميز بمعمارها العريق الجميل جدا، ولمستها الجنوبية الساحرة، اسمها بالعربية يعني مدينة بلا ضجيج، يرفل سكانها في شمسها الدافئة وتوهجها الطبيعي، مما يستقطب مشاهير السينما الدولية. كما لا يمكن زيارة المنطقة دون اقتناء أوراق الحِنّاء و اللوز وأشياء أخرى أكثر متعة. كقضاء ليلة معفَّرة بعطر الورد البلدي، تحت ضوء القمر مع أنغام الهجهوج أو الرّبابة (آلتين موسيقيتين من التراث الأمازيغي الشعبي أو الكناوي) أو مشاهدة أحواش)جوقة محلية راقصة من التراث الأمازيغي، من نساء ورجال المنطقة).

هنا ترعرعت أنا عبد الله الدادْسيّ، تشبّعتُ بموروث ثقافي متعدّد. وتشرَّبتُ من موسم قلعة مكونة السنوي. موسم الورود الشهير. فيه تعرفت على سياح كثيرين من بقاع العالم. صرتُ متميزا بين شباب بلدتي بوسامتي. هكذا يقول أصدقائي. عينان خضراوان وبياض مشوب بسمرة لطيفة.

لتتشكل لدي ملامح سكان جنوب أوروبا. هذه السمة كانت تجعلني محظوظا لممارسة التمثيل. إلى جانب كبار النجوم العالميين في مدينة الفن السابع، ورزازات. قال لي الممثل الإيطالي العملاق

أنطوني كوين، ذات دورة سينمائية، أنت لياقة سينمائية جميلة جسدا وحضورا.
كانت تلك الأشياء حافزا لي، لتعلُّم لغات أخرى غير لغتي المحلية، مما سيؤهلني فيما بعد للتعرف على زوجتي جانيت، حين قدِمت في بعثة ثقافية إلى جنوب المغرب.
كانت رفقة أصدقاء لها من أمريكا وأوربا في نفس البعثة. أثار اهتمامَها وجودُ شابٍّ مغربيٍّ
يتقن الإنجليزيةَ ويملك سحنة إيطالية،على حدّ نعتِها، فحتى مشيتي وطريقة لبسي قيلَ تختلف.
كنتُ مندمجا مع أصدقائي الغربيين، إلى درجة المحاكاة الدقيقة في كل شيء، إلا أن هويتي المحلية راسخة لا تتزحزح، تتجلى في لكنتي حين أتكلم وفي لبسي المحلّي، نوعٍ من الجلابيب لا أفرط فيه. خصوصا بعد الانتهاء مساءً والخلود إلى الراحة. هذا المزيج من الأشياء الجميلة، هو ما كان يلفت انتباههم إليّ، بالإضافة إلى سِمة الصدق والعفوية التي يتميز بها سكان بلدتي، مع بشاشة تعلو وجوههم السمحة، والتي انطبعتُ بها أيضا.
هذا ما قرب بيني وبين جانيت ذات لقاء فنّيّ:
- هاي جانيت.
- هاي عبد الله.
- اسمك جميل يشبه اسم أختي.
-صحيح؟ ما اسم أختك؟

-نجاة.

-أُوه ييس ناجيت. تشبهني.

أضحكُ سعيدا، فلأول مرة أتحدث بطلاقة مع أجنبية من الزوار:

- حفظتِه بسرعة. قلت لك يشبه اسمكِ، لكنْ لم أقلْ تشبهك.

ثم بابتسامة مستفزة أردف: نجاة أختي أجمل.

- صحيح؟

تضحك ملء فيها قائلة:

- أريد أن أراها.

-أحقا؟ لكنْ لماذا ضحكتِ هكذا؟ هل استفززتكِ؟

- أحب الجمال في كل شيء. قد فرحت وأنت تتيح لي فرصة مثيرة.

-هل ترغبين في زيارة أهلي؟

- نعم أكون سعيدة. هل تستطيع صديقتاي ذلك أيضا ؟.

- منْ ؟

- كارولين وكريستينا.

- كما تشائين، فلدينا غرف كثيرة.

- رائع. شكرا عبد الله.

كانت تلك المحادثة التي تلتها زيارة جميلة، دامت ساعتينِ، كافية لكسبِ شغف جانيت، حيث بدأتْ تفكّر في الاستقرار بالمغرب. سألتْها كارولين التي تفاجأتْ بقرار صديقتها:

-" هل أنت جادة في العيش هنا بمفردك بعيدا عن الوطن؟

- نعم بكامل قواي العقلية أقولها. لست بمفردي. الوحدة هنا غير

مزعجة. وقد أصنع عائلة.

- من طين؟

- لا أمزح أنا متحمسة جدا.الناس هنا طيبون للغاية. أليس كذلك؟

- بلى ولكن الاستقرار نهائيا صعبٌ. فكّري جيدا هنالك آمالك تتحقق وأموالك. هنا مستحيل.

- لا شيء مستحيلٌ يا كارو. ما بكِ خائفة؟ أنا قوية. ثم المناخ هنا رائع. الشمس دائمة. انظري إلى السماء. ما أجملها!

- مع من ستعيشين؟ الناس لن يؤووكِ. أظنكِ تمزحين يا جانيتا. قولي إنك تمزحين.

-لا أبداً. عندي أصدقاء رائعون . عائلة عبد الله. أحببت عفويتهم وطيبتهم. أحببت ثقافتهم وطبيعتهم الآسرة. سأرتدي مثلهم. الناس هنا على الفِطرة.

سأركب الجَمل وأيضا لاندروفر. سأتنقّل في كل مكان. لا تستغربي. الثقافة هنا مزيج متنوع. والطبيعة تنجب جوا فريدا لا أظنكِ رأيتِه في بقعة أخرى في العالم.

- لا تبالغي. وقد تتزوجين هنا أيضا ويكتمل التمازج.

- نعم فكرة رائعة . لِم لا؟

- أنصحك بالتروّي. فكري ملِيا في عواقب هذه المغامرة. على العموم ستكون مجازفة مثيرة. أتمنى لك حظا موفقا. وتذكّري أني منعتك فلم تمتنعي.

- نعم بالتأكيد. شكرا كارو. ستظلين صديقتي المفضلة. ولن أخسرك أبداً أ ليس كذلك؟

- بلى. فأنا أعشق هذا البلد أيضا. وقد أبني خيمة على قمة توبقال، أو على أقرب قمة بجوارك.

تصرخ جانيت: يا لكِ من ساخرة جميلةٍ، حتى وإن كنتُ لا أصدقك فهذا دعمٌ رائعٌ منك".

ظلتا تترددان على بيتنا طيلة وجودهما في المهرجان الثقافي، إلى أن تقرر السفر مع المجموعة الفنية إلى مدينة الصويرة، لحضور موسمها الثقافي الكناوي.

خلال زيارة لنا بمفردها، سألتها ونحن نحتسي شايا ساخنا تحت خميلةٍ في حديقة بيتنا:

-هل ستسافرين غدا إلى الصويرة؟

- نعم هذا ضمن برنامج الفريق. هل تعرف المنطقة جيدا؟

- سبق لي زيارتها، لكن أجهل الكثير عن مرافقها.

- يعجبني شاطئها الجميل ومبانيها القديمة. أتمنى أن ترافقنا.

- لا محالة، فالرحلة إليها مغرية.

- إذن اتفقنا. شكرا عبد الله أنت مذهل. أحبك.

تعتقل قلبي الذي تجمد في مكانه، وهي تطبع قُبلة على خدي وتغادر.

حضنْتُ القبلة بأصابعي، و طفقتُ أمررها بحنوّ على خدي، حتى جزّأتها فسيفساء

دقيقة، أعدتُ ترصيصها حبّةً حبّةً في غرف جوفي وفوق كل وجهي.
لم أنم تلك الليلة.
كانت تلك بوصلتي إلى حياة مثيرة تستوي على مهلٍ.
إنها ثورتي على نفسي وعلى العالم من حولي. على مجتمعي المحافظ. على أهلي و أعرافي.
وبكل العزم قررت أمرا لن أتراجع عنه، مهما كلفني من تضحية.
سأغير حياتي من أجل أسرتي الصغيرة.
مات أبي ولم يخلّف لنا إرثا غير بيت وأرض صغيرة ، عليها بعض أشجار الزيتون واللوز. فالمنطقة جبلية لا تصلح لزراعة الحبوب أو كسب الماشية غير الماعز أحيانا.
أبي بدوره لم يرث عن أبيه شيئا غير قطعة الأرض الهزيلة التي نعيش عليها.
كان رجل عدلٍ محترم، مكلف بتدوين عقود القِران في محكمة الأسرة أو رسوم الطلاق.
نحن ننتمي إلى عائلة عالمة. هذا ما كانت ترددُه جدتي مفاخِرة . رغم خطّ الفقر الذي كدنا نلمسه مرات عديدة بعد وفاة والدي، العائل الوحيد للأسرة. فقررت أن أروغ عن مسار الوظيفة في مكاتب المخزن. وأمسح وصمتها التي التصقت بعائلتي. جدي الثالث أو الرابع كان عون سلطة في قريتنا منذ ما قبل الحماية الفرنسية. في عهد القايد "أمورّان" الذي اشتهر بفساده آنذاك. كان جدي

يشتهر بدعمه للأهالي ومؤازرته لهم في وجه جبروت القايد. مما أكسب عائلتي سمعة على مدى حِقب متتالية.

كانت تلك هي الأوسمة المعوِزة التي تتوارثها أسرتي، والتي تشفع لنا بتولي مراكز الاحترام من طرف الجميع.

سأكسر تلك الأحجيات كلها. وسأصنع تاريخا يشملني و أجيالا مقبلة تأتي من بعدي. تُنسب لشجرة عائلتي. لن نظلّ تحت وصايةِ جدي القديم. سنتحرر من المخزن وأبني طريقا آخر لا يعترف بانضباط ولا بسمعة. المال فقط. المال هو ما يؤثث شخصية مرموقة لا يُردّ لها طلب.

وبالمال أصنع الجاه لي ولأسرتي. أنا عبد الله الدّادْسيّ أعلن العصيان والخروج عن الأعراف.

هاهي نجوم الليل تتراقص طربا، كأنها تبارك جرأتي. والخفافيش العمياء تعود مذعورة إلى بؤر الظلام، تشنق ما تبقى لها من امتداد الضوء تحت أجنحتها المشبوكة، ستنتحر قريبا كل تلك الخفافيش، حين أوزّع الكثير من النور. في قلعتي الحصينة.. تنغير. وسيبتسم لي التاريخ. وتبتسم الأماكن التي ستشهد ميلادنا الجديد.

البوابة رقم١٤

الحافلة المكيفة تحت تصرفنا أنا وجانيت، والفرقة التي ستتوجه إلى الصويرة، من غير دليلٍ، غير سائق الحافلة، في غياب الدليل المسؤول عن رحلات الفندق السياحية، مما جعلني أجود بمساعدتي، تطوعا في هذه المهمة. كانت الرحلة حلما لي ولها معا. كنا سعيديْن جدا وبوادر العشق تتوالد في قلبينا بقوة. كانت جذابة إلى

درجة كبيرة. جميلة جدا. هدباء شديدة الشقرة إلى درجة أني أدقق في وجهها لأرى شعيرات حاجبيها المقوّسيْن بحرفيةٍ، و أميز أهدابها الطويلة. كانت تحرص على تلوينهما بالكحل الأسود. فتظهر العينان الزرقاوان كواحةٍ تحفها ظلال النخيل الباسق. كنت أغرق مستمتعا في زرقتهما. لا شيء يشوب ذلك الصفاء المخاتل. فلا أكاد أعي ما حولي حتى أغرق من جديد نشوانا مبتهجاً.

- عبد الله، هل أنت سعيد برفقتنا؟

- نعم برفقتك أنتِ أشعر بسعادةٍ عارمة.

تضطرب كعروس في حضن عريسها. تدغدغها أولى تلك الوشوشات اللذيذة.

- شكرا أنتَ حبّوب. ثم بابتسامتها الجميلة تستأنف: أعني هل تشعر بارتياح في هذه الرحلة التي أجبرتك عليها؟.

- أشعر بخدرٍ يسري في كل جسمي وأنا معك. لا يهمني من يرافقنا. أنا هنا لأجلك أنتِ.

تعفّرها حمرة جميلة تشبه قنُوَّ التفاح المصدَّر من بلدي إلى الخارج، فترُدُّ بنبرة مازحة:

- أنت مصِرٌّ على إرباكي يا عبد الله، وأنا أسمع عزفك على قيثارة روميو. سأقبّلك وأرقص على أنغام عينيك.

- وأنتِ جولييت بسحرها أمامي. الاسم قريب من اسمك.

نتضاحكُ بصوت مرتفع، وكأنني أرمي خلف الضحكات قيود حياة كانت لي وأدخل إلى أخرى تنفتح على مصراعيها أمامي.

تنحني نحوي مغمضة العينين. أدرك ما ترغب. فأضع أصابعي الباردة على شفتيها

الملتهبتين. ثم طويلا أقبّل أصابعي.

- اسمعي يا جانيت، عندي اقتراح أتمنى أن توافقيني عليه.

بدهشةٍ تسألني:

-" ما هو؟

آآيْ..شيءٌ لسعني".

تضربُ بقدميْها وتصرخ.

-دعيني أرى.

يتدخّل أحد المرافقين بالبحث تحت المقاعد.

ينتشر خبر وجود حشرة لاسعة في الحافلة. النساء يتصايحن ويرفعن أقدامهن عن أرضية الحافلة. بعض الرجال يشاركون في

البحث أيضا.

يرتفع الصياح والضحك فجأة بعدما رفع أحد الباحثين يده إلى أعلى، تحمل

عصفورا مذعورا.

تودّجتْ جانيت وهي تقول: آسفة. كنت أظنه جرذا صغيرا تسلل إلى الحافلة أو عقرباً.

ضحكوا جميعا وصفقوا حين أمسكَته بين يديها تقبّله ولسانها يردد:

سامحني أيها الصغيرُ أرعبتُك. ثم فتحت نافذة صغيرةً وأطلقتْ سراحه.

أمسكتْ بيدي مستأنفةً: ربما آذيتُه بقدمي حين رفستُ بها. طمأنتُها: لنعدْ إلى حديثنا. أنتِ دكتورة صيدلة أليس كذلك؟

- بالطبع.

- لا غرو أنك ترغبين في المكوث هنا في المغرب.

- أعندك مانع؟

- لا أبدا. فقط عندي اقتراح. ما رأيك في سفري معك إلى فنلندا والتعرف على بلدك؟.

-كيف؟

-بعد فترة من العمل معا، نعود للاستقرار هنا، برصيد يؤهلك للتفرغ لهوايتك وعملك.

- تقصد المسرح والصيدلة. وأنتَ؟

- لمشروع ما. نفكر فيه حينئذ بجدية.
كاد يُغمى عليها من السعادة، مترنحة ترتمي على وجهي بالقُبل.
- أنت رائع يا عبد الله. أنت جميل. هل أعتبر الآن أنك طلبت يدي مني؟
أقفز من مقعدي إلى الفجوة التي بجانب السائق، وجهي نحو المسافرين صافقا كفا
بكف، عدة مراتٍ.
جانيت المنبهرة، تتابع بذهولٍ.
- اسمعوني أصدقائي جميعا. منذ أيامٍ شاء الله أن أتعرف على امرأة شفيفة
كالشعاع. جاءت من قطبٍ لا يستضيف الشمس إلا قليلا، من صقيع
سافولينا إلى حرارة ورزازات، لتدفن برودتها في رمالي. هنا حدث شيء غريب لهذا الشعاع. تلقّى صعقات حرارية لم يكن يتوقعها. صعقات من قلبٍ يعيش فوق هذه الرمال الساخنة. تفاعل الشعاع مع الحرارة ، تولدتْ لديه حياة أخرى وطاقة موجبة، دفعت به إلى الانصهار في القلب العاشق، فأعلن هذا الأخير ما يلي:
إني أنا عبد الله، أحدثكم وأنا في كامل إدراكي، أحب الآنسة جانيت كوفين
وأطلب يدها منها، الآن وأنتم شهود.

ألتفتُ حيث تقف جانيت منهرةً تنظر إليّ، وفي يدي شيء دقيقٌ يلمع:

- أميرتي هل تقبلين بي زوجا، يكمل حياته معك، على السراء والضراء، حتى النهاية؟

هنا تتقافز، أنظار الجميع نحو جانيت، في انتظار ردها، وكأنهم يتفرجون على لقطة رومانسية جدا من فيلمٍ، فيكتمون حركاتهم.

تقوم الفتاة كنسمة ربيع تتهادى، تقف إلى جانبي ماسكة يدي وشفتاها تهمسان:

-أحبكَ.

يستقرُّ خاتم الخطوبة الفضّي ذو الفص اللامع في بِنصرها بيُسرٍ شديد. مندهشةً

تسأل:

- كيف عرفت مقاس إصبعي؟.

- بقلبي..

وعلى صدري يستقرُّ رأسها، وأنا أقبّلُ جبينها طويلا.

تحت التصفيق والصفير تنهال علينا التبريكات. كانتْ هي محمومة بين ذراعَيّ. وكنتُ أنا محلِّقا في السماء. تطير كارولين وكريستينا إليها تحضنانها وترقصان حولها على إيقاع موسيقى محلية تصدح داخل الحافلة . كانت الفرحة عارمة، ليس فقط لأني وجانيت أعلننا خطوبتنا، ولكن نشوة الرحلة السياحية أيضا تضفي الابتهاج على الجوّ. كل الحافلة تعج بالحركة والسعادة.

فأينما يكن الأصدقاء والحرية تكن السعادة.

ينحّي السائقُ الناقلةَ جانبا ثم يتوقف. ننظر إليه في غمرة الحدث الجميل. يقترب مني ليعانقني مهنئا وهو يقول: لن تفوتني هذه اللحظة الجميلة، قبل أن أدلي بشهادتي في حقّ صديقٍ يقدم خدماته للجميع بأريحية. يلتفتُ إليّ وذراعه على كتفي قائلا: نحبك يا عبد الله.

ثم يربت بكفه على صدري مستأنفاً:

أنتَ شابّ وسيم في مقتبل العمر، مشمولٌ بالصحة والتفاؤل. فإذا رحلتَ إلى أي مكان لا تنسَنا. لا تنس بلدتك الصغيرة. كلنا نحبك. كلنا نحتاجك.

تدمع عيناه. وهو يشد عليّ بحرارة مردفا: سنحتفل. يصفق الجميع بحرارة بعد انتهاء كلمته. وكأنه على منبر يخطب فيهم.

لم يتملكني الاستغراب من تصرفه. فأهل بلدتنا هكذا يتصرفون بتلقائية وحب. ذاك هو موسى صديقي الحميم.

شكرتُهُ وعدتُ متأثرا بكلماته إلى خطيبتي. كنتُ أدرك ثقل الرسالة التي ضَمّنَها تهنئتَه. كثير من الشباب تعرفوا على أجنبيات. سافروا معهنّ إلى بلدانهن ولم يعودوا. أخذتهم الأضواء فنسوا الأهل و البلد. لكن أبدا لا يمكنني فعل ذلك..

بلدي جميل جدا وآمِنٌ، يغري بالمكوث فيه إلى الأبد. ولذا صارت موجة الهروب إليه ، خاصة بعد سن التقاعد، قرار كثيرين من

أوربا وآسيا.
جانيت شابة جميلة هاوية للمسرح تحديدا الأوبرا، تعشق المغرب الذي اكتشفتْه من
خلال صديقتها كارولينا الأوروبية ، من أب فرنسي و أمّ مغربية، والتي أفادتها جدا في التقرب من المجتمع المغربي.
جانيت وحيدة والدِها الثري. فقدت أمها وهي طفلة، إثر نوبة صرع حادة، أصابتها
وهي في سيارتها، حين التطمتْ بشجرة كبيرة أودت بحياتها. كانت ترعاها جدتُها بعد ذلك، إلى أن توفيت أيضا بحادث سيارة. مما أصاب الفتاة المراهقة آنذئذٍ بصدمةٍ أفقدتها الثقة في الحياة، وبأن القدر يخطف منها من تحبهم واحدا واحدا، بنفس المصير. صارت مهووسة بأبيها لا تبرحه. ترافقه إلى مكاتبه واجتماعاته، حتى بات الأمر ملفتا، ففطن أن ابنته مصابة برهاب الوجود في مكان ما بمفردها. أوما يسمى بفوبيا الوحدة. وهي حالةٌ إذا تطوّرتْ، تُفضي بصاحبها من اكتئابٍ حادّ، إلى إنهاء حياته. أخضعها للعلاج النفسي والعصبي عند أكبر الأخصائيين. ومنحها حريتها كاملةً بعدما كان يتابع حركاتها وسكناتها ،خوفا عليها من النكسة. طعّمها بالنصح والتجربة، وقال لها ذات صباح جميل بعد أن شفيتْ تماما من أزمتها الحادة: هيا انطلقي في أمان الرب. ولا تهملي دراستك وهواياتك. الحياة جميلة وأنت جميلة فتحابّا. أنا هنا دائما بجانبك، فمتى تحتاجيني أكنْ بجانبكِ.

قبّلته قائلة : ليحفظك الرب. أنت أغلى ما لديّ.
حازت على دبلوم في الصيدلة، فاستحقت لقب دكتورة. هكذا يناديها أبوها مدلِّلا
"دكتور جاني".
وبدل أن تفكر في فتح صيدلية في أفخم الأحياء في أيّ ولاية شاءت، قامت تنمّي
هوايتها في المسرح وتروي ظمأها إليه. كانت زميلتها في الهواية الآنسة كارولين التي تعرّفت إليْها خلال مهرجان الأوبرا العالمي بولايتها، ذات زيارة سياحية إلى فنلندا. فتوطد تواصلهما بعد ذلك، من خلال شبكة الأنترنت. ثم دعتها مرة إلى فرنسا لحضور مهرجان "كان" السينمائي العالمي. فانبهرت بنجومه وعروضه، وقررت الحضور إليه سنويا. من يومها توطدت الصداقة بين جانيت وكارولين. صارتا تزوران مناطق في العالم لحضور مهرجانات ثقافية متعددة، خصوصا البلدان الناطقة شعوبها بالفرنسية أو الإنجليزية. إلى أن جاء دور المغرب، فافتتنتا بسحر الطبيعة والناس والمناخ.
كانت زيارتها الثانية. لمّا تعرّفتْ إليّ. تضاعفتْ سعادتها حين طلبتُ يدها. كنتُ أشعر بصدق مشاعرها. لا شيء تخسره إن رفضتْني طبعا. ربما أنا رأيتُ فيها حلم شابّ منبهر بالغَرب. شاركتْها صديقتها كارولين تلك الفرحة، رغم مسحة التردد التي بادرتها خوفا عليها من أن تفقد الكثير من حريتها. هكذا ادّعتْ حين سألتْها جانيت عن

تردّدها. وأنا أشاطرها التخوّف الذي لم أجرؤ على إظهاره. مجتمعي يؤمن بالعادات ويتشرّبها كالهواء. فهل ستنجح جانيت في التكيف مع أجوائنا وتقاليدنا؟.

تنظر إليها كارولين ودمعتان ثقيلتان تتدحرجان فوق خدها. ترتمي جانيت في حضن صديقتها وهي تشعر بدلالة الدمعتين.تهمس في أذنها: لا أريد لك انتكاسة أخرى يا جانيت، أنا مجبرة على الفرح لفرحك..

تتقاذفُ أمامها ذكرياتٌ مُرّة، أمها وجدتها، فتبكي بحرارة، ويداها ملفوفتان حول ذراع كارولين، كانت ترتعش.و بصوتٍ خفيضٍ تقول كارولين مربّتةً على ظهرها:

"لا تبكي يا عزيزتي. لا نبكي في يوم سعادةٍ . ما كنتُ أقصد ذلك. أنا آسفة".

الآخرون ما زالوا يصفقون ويصفرون. الجو كان مرِحا والموسيقى في أوجها. قام بعض الأصدقاء يرقصون.

إنها رحلة . إنهم سعداء. جانيت وحدها كانتْ تبكي وتبتسمُ.

البوابة رقم١٥

الشمس تتكئ على خاصرة الأرض. تهوي ببطء ، خجلى تودّعنا بقُبلةٍ ترخي
احمرارها على كوكبنا قبل أن تقع في حضن البحر، لتخفي لهيبها المحتدم خلف الأفق، مستقرة في رقعة أخرى من الكون الفسيح.
الحافلة تتقدم نحو أضواء مدينة عتيقة. تبدو منتصبة كلوحة تاريخيةٍ. تتخلل ساحلَها مدافعُ أثريةٌ بفوهات مقبلة على المحيط الأطلسي، تحكي لنا بفخر، عن ضراوة الدفاع عن تراب الوطن وعن مائه، ضد الهجمات الغاشمة التي تكالبت عليه من أوربا وأمريكا في بداية القرن الماضي.
الحافلة تشق طريقها نحو ساحة فسيحة قرب الشاطئ.
ثم تتوقف قرب مسجد صغير. يقول موسى:
هنا العودة إليها أضمن بعيدا عن الزحام. ثم يمدّني بنسخة من مفتاح الحافلة. يترجل الجميع، في تصايح وتضاحك عال.
ساهِ، أسافر بعيدا خارج المغرب على جناح الخيال، إلى بلدية سافولينا في القارة الباردة. أبحث عن رجل اسمه لاري كوفين. الجميل في الأمر أن الرجل الذي أبحث عنه، يقاسمني حبّين: حبا للقرية وحبا لابنته. سأشرح له تعلقي الكبير بهما، وأن الثانية

بمحض إرادتها أحبتني. وأنها أول من صرحت لي بذلك وشجعتني على حبها. اختارت الحياة معي على أرضي. يعني باختصارٍ أنا لم أجبرها على شيء.

أتوقع أنه سينهرني قائلا: "اغرب عن وجهي أيها العربي الجائع، من أنت حتى تحظى بشرف مصاهرة آل كوهين". سيصعقني اللقب. .. "كوهين !؟ ".

بعنجهية سيؤكد:

نعم كوهين.

فأتجلد لأردّ:

"تخاطبني باستعلاء أيها الكوهين المتعجرف. أراك متفحّما خالياً من المشاعر. تُفرغ الأشياء من جوهرها وتقيِّمها بالمال وبالجاه. تهاجمني بعدوانية بغيضة، قبل أن تعرف كم معي ولا من أكون. حسناً أيها الكوهين، ليس معي إلا هذه الكلمات، هنّ رصيدي الدائم : أنا ابن أرض فوق رمالها الحارّة تنصهر الكراهيات. أدعو إلى التعايش وتقبُّل الاختلاف، و أنبذ العنصرية والتطرف. أعلنُ جازماً أنّ مصاهرتك لا تشرّفني".

تلكزني جانيت وهي تقول "كأنك محمومٌ، جسمك ينتفض".

تفيقني من غَلياني ، فأنظر إليها كالأبله هامسا:

-هل أنت متدينة؟

تحدق في وجهي فترةً ثم تقول:

- .. وأُصلّي مثلك.

- أحقا؟ ما ديانتك يا جانيت؟

- مسيحية.

أتنفس الصعداء. أظنهم متعايشين مثلنا، أو هكذا يتهيّأ لي. لن يعترض أبوها على زواجنا. آملُ ذلك. ربما أهلي أيضا لن يعترضوا. تنفرجُ أساريري. فأضعُ يدي في يدها ونغادر الحافلة.

كان الجميع في انتظارنا ووجوههم صوب جوقات الموسيقى والرقص. أقولُ محبورا:

هيا انطلقوا.يتحرك الجمع، فتنظرُ إليّ كارولينا رفقة بعض النساء:

- في انتظارك أنت دليلنا. تقول ذلك متفرِّسة في وجه جانيت. كأنها تتوسل بألا تدعها.

- ليكنْ إذنْ، كم العدد؟

- خمسة فقط. قد انطلق الآخرون كما رأيت .

-أين كريستي؟ لاحظتُ أنها استغنتْ عنا، ربما وجدتْ أصدقاء جدد.

-تردّ جانيتْ: لا بأس،هيا بنا. لنحتفلْ.

نقفز كالأطفال. نمشي بهرولة خفيفة إلى حيث الموسيقى الكناوية تتغشانا، فنذوب ونتحلل. ندخل في دائرة كبيرة من أجساد مترنحة. أخذنا نميد أيضا مع الإيقاع الرهيب. كل واحد بطريقته. جانيت تنظر إلى أعلى مغمضة العينين كأنها تبتهل وجسمها يرتج. هذا العزف الساحر يجعلنا كالمجاذيب. بدأت جانيت تغمغم كأنها تهذي ثم تهمسُ في أذني:

- مثل الريكي للبوب.
- مثل أنغام مجموعة "ناس الغيوان". هي أيضا تشعرني بنفس الدبيب.
أغمضُ عيني أيضا وأنغمسُ في ذاتي. أغادر للحظات كل من حولي. أتحرر من جانيت ومن مسؤولية الدليل تلك. أرتفع وأنخفض كالطائر المذبوح.
صرت أهتز مع النغمات المتصاعدة. أعشق هذا العزف الكناوي، يربطني بهويتي.
هذه الموسيقى تحررني من كل شيء. حتى مني.
أفتح عيني لأنفد من قبضة هذا الخدر المتفشي، أتطلعُ بذهولٍ حولي. الكل يغلي كالماء في مِرجل على النار. رائحة العرق مع رائحة عطور النساء تختلط في الجو.
ألتفتُ لأمسك بيد جانيت ونرقص. لم تكن موجودة. أين اختفت؟ أين الأخريات اللواتي كنّ معها؟
تهمني جانيت فقط. أين هي؟ قد تضيع في هذا الزحام الخانق.
شرعْتُ أبحثُ بعينيّ حولي. الأجساد تتشابه. كلها تتمايل.
هناك منصة منصوبة بالقرب، يتجمع الناس حولها، يتراقصون كالأشباح مع ظلالهم المعكوسة على خلفية المنصة، تصِلني معزوفات أخرى، شبيهة بالكناوي. أشاهد شعورا متدلية تنتفض فوق أكتاف الرجال والنساء معاً. تجحظُ عيناي تمسحان المكان. تنتقل قدماي فيه بلا هوادة . أتذكرُ هاتفي الذي تركته في الناقلة،

ضمن محتويات أخرى. لم أشأ جلبه معي خوفا من ضياعه. لم أفكر أني سأضيّع خطيبتي أيضا. أبتسمُ فجأةً من شيءٍ بداخلي يردّد:

ليس إلى هذه الدرجة يا رجل، لا تبالغْ، لستَ في غابة.

أشعر أني قد أفقدها في كل لحظةٍ وأنها كالسراب قد تنتهي. وينتهي معها حلمي.

يشتد نبض قلبي. كطفل يتنفس أولى جرعات الهواء.

خفقانه يدفئني فأنسى قليلا حيرتي. فجأةً تعترض نظري كارولين وهي ترقص في جوقةٍ قريبة مني. أعدو نحوها. أسألها عن جانيت. تشير بإصبعها إلى المنصة دون أن تُوقف اهتزازها. مجموعة من المتفاعلين مع الموسيقى، يتفرجون على امرأة تتلوى. لا تظهر ملامحها من حركاتها السريعة. ألتفتُ نحو كارولين قائلا:

- جانيت هي تلك المسعورة؟ وقبل أن تجيبني كنت هناك أسحبها من ذراعها بقوة. تستفيق من نشوتها بزعيقي المفاجئ:

- ليس جميلا وضعي في موقف مماثل.

أطوقها بذراعي مستأنفا: ظننتك ضعتِ أو أنّ أحدا اختطفك.

لم تتفوه بحرف. كانت تنظر إلي مشدوهة. لأول مرة تراني على هذا الشكل من الغضب. تنتصبُ أمامي وأنا أتحدث، تكتفي بالنظر، كأنها تتفرج على شريط قصير. لا ترى فيه إلا حركات وجهي.

عندما أدركت أنني بالغتُ أطبقتُ شفتيَّ. كان رد فعلها كاسرا لانفعالي. لثمتْ خدي ومشتْ.

- إلى أين؟

لم تجبْ.

-أسألك يا جانيت إلى أين؟

- إلى الحافلة.

أقول في نفسي: ربما ترغب في الاختلاء بنفسها.

فأهمس:

- هل أنتِ بخير؟

تتفحصني وهي تقول:

- هل أنتَ بخير؟

أومئ برأسي أنْ نعم. وأنا أحلل رسالتها المعكوسة إلي.

فردُّها ليس له سوى تأويل واحد " إذا كنتَ بخير فأنا بخير".

ابتسمتُ.

البوابة رقم١٧

تضع هند قرصا لأغنية أمازيغية للمطرب الشعبيّ محمد رويشة، برخامة صوته الدافئ. يستملح د. رامي الأهازيج الأطلسية الجميلة المتناغمة مع منظر الطبيعة الخلابة.

السيارة تطوي الطريق تحت عجلاتها طيا سريعاً، يتابع الدكتور رامي حشرات صغيرة تطير في الجو، بعضها يعْلق بزجاج السيارة الأمامي، في اصطدام مأساوي، يبدو تأثير ذلك على وجهه كلما علقت إحداها بالزجاج. تنتبه هند إلى ذلك فتُخرجه من صمته قائلة :

-مافتئ الربيع يضوع حولنا رغم حلول الصيف.

- نعم. فالفصول امتداد لبعضها. هي دورة طبيعية متكاملة.

- حكمة الله.

- أجلْ. انظري إلى تلك الحشرات العالقة بزجاج السيارة. منها ما يحتوي على سائل أخضر بدل اللون الطبيعي للدم، أتدرين السبب؟

- حسب علمي دم الحشرات لا يتوفر على نسبة كافية من الأوكسجين لتوزيعها على بقية الجسم، عكس الحيوانات التي تحمل الهيموغلوبين الأحمر وبه الأوكسجين.

- تماما ولهذا دم الحشرات غالبا مائيّ من غير لون أو خفيفِ الخضرة.

- هل كان تأهيلك علميا؟

-بيولوجيا أوعلم الأحياء. والحشرات صديقتي.

يضحك د. رامي معلقا:

- مفارقة مثيرة للشفقة. أنْ أعْلَمَ عليك في مجالكِ، هو نوع من التذاكي أليس كذلك؟

- لا بالعكس كلٌّ يعلم في مجال تخصصه. لا تذاكي بين الأصدقاء يا دكتور.

ثم تبتسم. محاولة تغيير الموضوع:

- هل تحب أن تسمع شيئا معينا؟ فالطريق ما زال طويلاً.

- أي شيء من اختيارك، ذوقك جميل.

- شكرا على لطفك.

- عفوا سيدتي.

بعد بضع ثوانٍ، تصدح أم كلثوم برائعتها "شمس الأصيل".

تعفر وجه د.رامي ومضة رضا. وتدثر شفتيه ابتسامةٌ خفيفة. فيرخي جسمه على المقعد ورأسه إلى الخلف قائلا:

- الله على ذوقك يا هند تنظر إليه مبتسمةً دون أن تقول شيئا، ثم إلى الطريق الطويل أمامها..

كان مندمجا مع الأغنية الجميلة وعيناه مغمضتان.

تبتسم وهي تتنشّق الهواء عميقا.

تُقفِزُها رنّة من هاتفها الخلوي، مرتبكةً تفتح الخط مبادِرةً :

- ألوو.

- ألو يا حبيبتي، كيف الحال؟

- بخير يا ماما، اطمئني، وأنتِ؟

- أنا بخير، اهتمي بنفسك. الله معك.

ينقطع الخط . أو ربما هي من أغلقته لتنهي المكالمة.

بصوتٍ يملؤه الحنين إلى دفء الأسرة يخاطبها رامي قائلا:

- لا شيء في العالمِ أدفأ من حضن الأم. إنها الأمان الحقيقيّ.

- بالفعل. لكن أمي متوفاة من سنين، الله يرحمها.

تصدمه العبارة فينظر إليها مستغربا وقبل أن يفتح شفتيه تستطرد:

- إنهم زملائي يريدون الاطمئنان.

- أهو أحمد؟

- تقريبا هو.

- كيف ذلك؟ وصلني صوت امرأة.

- إنها ليلى، مرافقة أحمد، تطمئن علينا. لا تنزعج يا صديقي، كل شيء على ما يرام.

يلوي الدكتور رامي شفتيه والحيرة تعاوده من جديد.

تلعن هند في نفسها تلك الرنة التي وتّرت الهدوء المغتَصَب.

يرسل نظراته الفارغة إلى ما حوله، وتفكيره يطرح عشرات الأسئلة من غير إجابة.

البوابة رقم ١٨

تتوقف السيارة "الجيب" في محطة وقودٍ ، يزوّد العامل محركها بما يحتاجه من بنزين، تسلمه ليلى المبلغ ثم تستأنف الطريق. أحمد المنهوك إلى يمينها يبدو نائما. الشمالي في الخلف يقِظٌ كالعادة.

يقترح عليها السياقة ليريحها من التعب. تحبذ الفكرة، فتنحّي السيارة يمينا ثم تتوقف.

- ما الأمر؟ يسألهما أحمد منفزعا.

- نستبدل القيادة أ سي أحمد.

- ظننت أن سوءا قد طرأ..

مسهباً كالعادة يقول الشمالي:

-لا سوء إن شاء الله. الأمور على ما يرام. لم يتبق إلا القليل ونصل.

- جميل.. فالشمس قد بدأتْ تلم متاعها للرحيل. علينا أن نسرع قليلا يا علي.

باسماً يرد وعيناه تلتمعان:

- لا تقلق يا سيدي، سوف نصل في الوقت الملائم. أما بالنسبة للفندق فقد تم الحجز باسمي.

- متى تم ذلك؟ فقد بسطْتني بمبادرتك هذه.

- قبل قليل وأنت غافٍ، اتصلت بأحد معارفي يملك فندقا بدرجة ثلاث نجوم ،لكنه جميل.

حجزت ثلاث غرفٍ، اثنتين بأسِرّة منفصلة، وأخرى بسريرٍ واحدٍ.

- أحسنت. تعجبني حذاقتك. لكن حبذا لو أضفتَ بعض النجوم.

- تحت أمرك أ سي أحمد قد أغيره حالاً بطلب بسيط.

- أسرعْ من فضلك إني حريص على الجودة.

ثم يريق بعض الدسم على حديثه مع الشماليّ:

"اسمع يا عليّ. لمّا تُنهي خدمتك معنا سوف أفاجئك بما يسرك"..ويواصل في نفسه:

"هكذا أ شْبِع جشعك وأتّقي شرّك، فإني أرى زوَغاناً في عينيْك".

-شكرا.

- لم يبق الكثير وتلحق بنا هند ورامي.

- أجلْ.

- يبدو أن ليلى نامتْ.

- نعم يبدو ذلك، فالسياقة مرهِقة.

يضع علي(الشماليُّ) قرصا لمعزوفات موسيقية. يخفض الصوت، ثم تنطلق السيارة.

ليلى ما تزال غافية. تعكس المرآة صباحةَ وجهها، يختطف النظرة فالنظرتين

يغمغم في نفسه: يا لك من جميلة مثيرة. مثيرة جدا يا آنسة"

يتنهد أحمد عميقا، وهو يجول في عالمه الخاصّ دون أن يفسح

مجالا للكلمات كي تنعتق من شفتيه:
"آهٍ يا توأم الروح، صديقي العزيز رامي ! كيف أعبّر لك عن أسفي. لم أتمكن من إخبارك بكل شيء. سامحني يا صديقي. فقد تغيرت الأمور فجأةً، لم نكن قد خططنا لها من قبل. رغم توقُّعاتنا السيئة".
يقاطعه منظر قطيع من الماعز يقفز عائدا من مرعاه يترنح من الشبع. فيتمتم بشفتيه المرتعشتين: "كم أغبطك أيها القطيع في هذه اللحظة الحرِجة من عمري".
ثم يواصل هسيسه : "آهٍ يا رامي ليس لي بين هؤلاء إلا أنت. ستسامحني لا محالة. لأنك نصفي المفقود. نصفي العاقل".
طنينٌ مفاجئٌ يقطع عليه خيط تفكيره، ثم لسعة حادةٌ على ظهر يده، إنها ناموسةٌ شريدةٌ بثقلِ دبّابة عسكرية. ترشّ سائلها المخدّر على جلد يده، لتمتصّ ما تشاء من دمه بلا استئذان.
يقول في نفسه شامتا وهو يفرك جلده الملسوع: " تبادلْنا تلوُّثا بتلوّثٍ. صرنا الآن واحداً. ستبحثين عني مطالبةً بحقك في العيش. ربما سُمّي أقوى من سمّك".
عليٌّ ما انفكّ يشتت بصره فوق الوجه الغافي. تحيد السيارة فجأةً عن الطريقِ، تلتطم بكثبان رملٍ في الهامش، تصرخ ليلى مذعورة بأعلى صوتها: آشْ واقعْ؟. ويتساءل أحمد: مالك أ علي ياك لاباسْ ؟ مْشيتْ تقتْلنا..
- ما عرفتش، يمكن شي (كروفيزون في العجلات) بسبب مسمار أو

شوكة..

- يا ساتر.

ينزل الرجلان في مكانٍ خالٍ من الناس، والليل بدأ يشمّر عنْ ساعديه للتقدّم أكثر في حلْكته.

- ليلى انزلي حتى نصلحَ العطبَ.

- لا يا سي أحمد دعها في السيارة، لن نحتاجها في شيء. سوف أتكلف بإصلاحه.

ثمّ بسرعةٍ يوجه سؤالا إليها: هل لديكِ مصباح يَدَوي في صندوق السيارة، آنسة ليلى؟.

- نعم في الدولاب الصغير. أمام المقعد الأمامي.

يفتح الدولاب، لم يعثر على شيء. تنزل ليلى وهي تنظر حولها بعينين جاحظتين. تتوجه إلى الصندوق الخلفي للسيارة. تقلّب أركانه. لم تجدْ شيئاً. فتعود خائبةً. فجأةً تتعثر قدمها بشيءٍ رخوٍ، فتُصْدرُ صرخةً تثير انتباه أحمد، الذي يقف على بُعد أمتارٍ في انتظار مساعدةٍ. يلتفت سائلا: هل أنتِ بخيرٍ؟. ترفع يدها لتطمئنه قائلةً: كانت بقايا طعامٍ في كيسٍ، ظننتُه حيوانا صغيراً.

يحمل عليٌّ هاتفه الخلويّ، يفتش فيه أو ربما يتظاهر بذلك. باهتمامٍ يتابع دون أن يقول شيئاً. يعود إلى مقعده خلف المقود. تعود ليلى أيضا للبحث من جديدٍ، جازمةً أنها رأت مصباحا صغيراً في مكانٍ ما في السيارة.

تنتبه إلى صوت إغلاق أبواب السيارة عليهما معا. أحمد بالخارج ما

يزال منشغلا بانتظار سائق وفيّ أو معجزة من السماء.
يدير عليّ المحرك محاولا إبعاد السيارة قليلاً عن كومة التراب.
تتوقف ليلى عن البحث، ترفع رأسها وهي تسأله: كيف سنتصرف تُجاه هذا المشكل؟
- لا تقلقي، سوف نجد حلا.
يجذبها من ذراعها بقوة، تستغرب من تصرفه العدواني. توزّع نظراتها بين أحمد الذي يلوّح إلى السيارات العابرة، و عليٍّ الذي يرتدي برقعا من القبحٍ، يخفى خلفه وداعته المزوّرة:
- ماذا تريد يا شمالي؟ هل جننت؟ هات مفتاح السيارة.
يمنعها من النزول مهددا: اعقلي واستمعي إليّ، قبل
عودة ذاك المغرور، أو تحمّلي العواقب إنْ لمْ تفعلي. ثم يُخرج ما يشبه السلاح من جيب سترته فتلوذ بالصمت.
- هل توافقيني الرأي بأن نتخلص منه هنا ونهرب معا. أنا أريد مساعدتكِ.
- كيف تجرؤ على هذا الكلام؟
-أحمد يملك الملايين. وبحوزته الآن لآلئ. لأتخلصْ منه بسرعة وأُمنحْك منها ما تشائين.
- لا ليس معه شيء. أنت مخطئ. اللآلئ سلمها لصديقه قبل أن يفترقا.
- لا أصدقك.
- الحقيبة في صندوق السيارة، فتشها. أتظنه غبيا؟

- إذن هي معه.

- لا . أنت حقا فقدت عقلك. كيف تفكر بذلك وتخون الرجل؟ انس الأمر. وكأني لم أسمع شيئا. فلا تخاطرْ بحياتك وحياتنا جميعا.

أحمد ينادي بأعلى صوته: يا شمالي. هل وجدت شيئا؟

- لا يا سيدي. علينا الاتصال بأحد مكاتب الخدمة الطرقية. لسحب السيارة..

- فكرة صائبة. حاول بسرعة من فضلك.

ثم يواصل انتظار مساعدة عابرة.

تردِف هند بسرعة قبل أن يلتحق أحمد بهما:

- إذن أنت من افتعل العطب.

يرمقها بعينٍ شامتة تكشف عن الثعلبِ فيه.

سيارة كبيرة تقترب. تعطي إشارة ضوئية. يبدو أنها لرجال الدرك.

تتنفس ليلى الصعداء. وترد عليهم بإشارة مماثلة.

تنزل بسرعةٍ، وتعدو إليهم.

- أهلا ، لماذا تقفون هنا؟ المكان غير آمنٍ.

- نعم سيدي، حدث عطب في السيارة وعجزنا عن تصليحه.

يلتحق بها أحمد، يحييهم ويطلب المساعدة.

- مِن وإلى أين تتجهون؟

تقول ليلى: من الرباط إلى شفشاون.

- زيارة؟

- سياحة، نحن ثلاثة.

- أين الثالث؟

يرد أحمد:

- في السيارة، هو السائق.

يذهب الدركيّ نحو سيارته المركونة جانب الطريق، يختفي ثوانٍ، ثم يعود برفقة آخريْن قائلا:

- هاهما يساعدانكم لتنطلقوا من هنا. المكان غير آمن.

- شكرا سيدي.

يُسمَع بعد دقيقتينِ، صوت إغلاق باب السيارة المضيئة، بجانب الطريق. فيسألهما أحد الدركييْن وقد أنار بمصباحه المكان: أين العطب؟

وهو يضرب بقدمه العجلات واحدة واحدة.. فيردّ: هنا. هذه هي العجلة المعطوبة.

كان الثاني يعطي إشارة ضوئية بمصباحه اليدوي، للسيارات العابرة. تستجيب إحداها بسرعةٍ. يسألهم تقديم مساعدة. يشرح لهم نوع العطب. يشكرهم ويستأنف طريقه رفقةَ زملائه. ينزل رجل كهلٌ من سيارته في يده مصباح، وشابان آخران معه، يبدو أنهما ولداه لشدة الشبه بينهم. يقتربون من السيارة المعنية. يهمّ الشابان برفعها بآلة صغيرة خاصة بذلك. يتمّ استبدال العجلة المعطوبة بأخرى صالحة. أحمد منشغلٌ في الحديث مع الرجل الكهل، اتضح أنه والد الشابين فعلا. قدِموا من الرباط، ووجهتهم الشاون

أيضا.. ليلى تبحث عن الشماليّ بعينيها في كل مكان. ظنا منها أنه ذهب لقضاء حاجته بعيدا عن الأعين. انتظرتْ لحظة ولما لم يظهرْ أخذتْ تنادي بأعلى صوتها. يلتفت أحمد إليها، مستفهما بحركة من عينيه ويده. فتوميءُ له بأنها تجهل.

كان الثلاثة الآخرون منهمكين في التصليح إلى أن انتهوا منه.

فاقترحوا عليهم مرافقتهم في الطريق إلى الشاون.

شكرهم أحمد وشرح لهم أن رجلا آخر كان برفقتهم قد اختفى..

مؤكِّدا: لا يمكن أن نغادر وعليٌّ مختفٍ هكذا.

تعقب ليلى: يا سي أحمد علينا الانصراف. ربما عليٌّ غادرَنا. فلا تنس أنه في بلدته.

لم يستوعب أحمد كلام ليلى. بل لم يستسغه أبداً ورفض المغادرة دونه.

يقول الرجل الكهل:

- سنشارككم البحث إذْ لا مناص من المساعدة..

- شكرا يا سيدي . لن أنسى موقفكم هذا ما حييتُ.

يركبون جميعا سيارة المرافقين الجدد ويلفون المكان. لا خبر ولا أثر. عندها أوجس مكروها أحمدُ. بدأتْ هواجسه تشتغل. ينظر إلى ليلى نظرة يشوبها ارتيابٌ. تؤكّد توقّعه. فتنقلبُ حاله مئة وثمانين درجة. وتتسعُ قاعدة اضطرابه النفسي. يشكر الرجالَ على ما بذلوه من تعاون. يودّعهم و هو يأخذ مكان ليلى خلف المقود. بجانبه تقعد حائرة لا تجرؤ على الكلام. يدير المحرّك و يغيّر وجهتَه.

بجنـون تلحـس العجـلاتُ الإسـفلتَ. عـابرةً لكـل الظنـون. أحمـد لا يعـرف شـيئا مـن التفاصـيل ولا يريـد أن يعـرف الآن. ليلى أكثر منـه اضطرابا. لا تفكّر إلا في سلامتهما. السرعة مفرطة. والصمت يفسح المجال للكلمات أن تجيش ثم تُعْلَق بالشفتين. الهواجس مضطرمة و الطريق لا حدّ لـه. فرقعـة أصـابع ليلى تضـاعف التـوتر. بعـضُ النباح في الخارج يشرذم الصمت. فتنطق ليلى أخيرا:

-إلى أين؟

-إلى أيّ قْرينـة كَحْلـة اللّي تضـربْني. آشْ رجّعني لهـذْ البْلادْ؟ تـابعْني النحْس فينْ ما مْشيتْ .

- عافاكْ وْقفْ أسي أحمد، وْقفْ عافاكْ خليني نكمّلْ السياقة فينْ ما بغيتْ أنتَ.

- أنا حْمار إذا ثقْتْ مازالْ فْ شي حدْ.

- عافاكْ تهدّأْ وخليني نْحكي لكْ.

- إذن أنتِ كنتِ عارْفة؟

- أبداً والله. وقّف السيارة باش نسمّعك الحوار. أنا سجلته بعدما حسـيتْ بشـي حاجـة غير طبيعيـة ممكـن توقـعْ . أنـت كنـت بعيـدْ كتفتّش على طريقة للإنارة.

- واخّا حتى ندخلو لوزّان.

تغمغم ووجهها المخضب بالصفرة يكاد يفقد تعريفه:

"الحمد لله، استطعتُ إقناعه".

يسود الصمت طويلاً، لا يُسمَع إلا زعيقُ منبهات السيارات التي تعدو إلى وِجهاتها. يحافظ أحمد على سرعةٍ معيّنةٍ، رغم مشاكسة الظروف التي تسير عكس المشتهى. فيدع السيارات الأخرى تتجاوزه. بعض الأضواء القوية بدأت تضايق بصره، فأخذ يعدّل نظارته الطبية على عينيه. عداد السرعة يسجل انخفاضا واضحا. تتابع ليلى توتره فتتدخل بطريقتها الوديعة:

- سي أحمد هل أستطيع أن أريحك قليلا من السياقة؟ أنت مجهَدٌ جدا.

يزجرها بنظرة كالسهم دون أن يرد بكلمةٍ، وعلامة الغضب بادية على سحنته. تخرس بعدها، وتنطوي بجواره في مقعدها، دون أن تنبس بحرفٍ واحدٍ. ربما تستشعر حجم معاناته النفسية فتصْبو إلى الصمت.

تتوقف السيارة بجانب بعض الدكاكين على الطريق الوطنيّ، يفاجئها بطلب الاتصال على هند. دون أدنى كلمة تفتح الاتصال:

- تفضلْ، هند معك.

- ألو هند، كيف الحال؟ أين أنتما الآن؟ اسمعي حدثت أشياء خطيرة سوف أحدثّك عنها، لا تخبري رامي الآن. دعي الأمر بيننا إلى أن نلتقي.

- رويدك يا أحمد حتى أفهم. ماذا تعني بِ خطيرة؟

- اسمعيني جيدا. الظاهر أننا وقعنا في كمين "مافيا" قذِر. فذلك الرجل المكلف بحمايتي قد خدعني و اختفى.

- ماذا تقصد ؟ لحظة. فهّمني أولاً ماذا عليَّ أن أفعل الآن؟ فأنا على مشارف شفشاون. هل أواصلُ السير؟

- أجلْ، أجلْ. توجهي إلى أي فندقٍ ذي خدمات جيّدة، واحرصي على أن يكون وسط المدينة.

- فهمت، فهمت. لا تهتمّ.

- هاتي رامي لأحدثه.

استغرق حديثه مع رامي زمنا ليس بقليلٍ، شرح له بعض الأمور باختصارٍ، ثم وعده بتتمة الحديث بعد لقائهما.

يشعر رامي بعد هذه المحادثة بارتياح طفيفٍ. يصمت قليلا ثم يلتفت نحو هند قائلا:

- طمْئنيني من فضلك، ماذا عن حارس أحمد؟

- ألم يخبرك؟

- لا لم يسعفني الوقت لأسأله.

أخذتْ هند تشرح ملابسات اختفاء الرجل في ظروفٍ مشبوهة.

- إذن اختفاؤه كان مدبراً.

- ربما.

- هل لديك أي فكرة ؟

بصوتٍ يشوبه الكدر تردّ:

- عمّاذا؟

- عن الرجل.

- لا أعلمُ عنه شيئا غير اسمه. لكنْ لماذا تسألني مثل هذه الأسئلة؟

- ظننتكِ تعرفين شيئا فسألتك. هذا كل ما في الأمر.
- أنا لم أتلقّ أيّ مكالمة إلا من أحمد كما رأيت. وهو من أخبرني.
- آسف لم أقصد بسؤالي إزعاجك.

تصمت ولا ترد. تستأنف طريقها إلى المدينة. هاهي معْلمتها الأولى تظهر فوق ربوة جميلة. إنها بقايا باب عتيق وبعض بنايةٍ، تحكي عن تاريخٍ شاهقٍ ،لقلعة أو حصنٍ تمنّع فيه رجال المقاومة ، ردحا من الماضي.. على غرار جبال الأطلس أو الريف. الأضواء الساطعة من بعيد تغري الوافدين إلى المدينة بالولوغ داخلها واكتشاف مباهجها ومآثرها.

السيارة تقترب. تتجاوز الباب المنصوب كتمثالٍ في الواجهة. لم تهتم هند لمّا تجاوزاه، لم تحدث د. رامي عنه، ولا عن المدينة التي تبدو زينتها مغريةً.

كانت نظراتها متصلّبةً أمامها، لا تلتفت إلى مُرافقها. تغمغم بداخلها: السماء دكناء حزينة، لا شيء يبدو ملفتا هنا. الأزقة هي هي لم تتغير. البنايات والألوان زرقاء

كالمحيط لم تتغير أيضا. أشعر كأنني أغرق. أشعر بالاختناق.

تتوقّف السيارة فجأةً، تنزل منها بسرعة ويدها على فمها. صوت استفراغ ما في معدتها يبدو مزعجا. بعض المارة يتحلقون حولها للمساعدة.

منهم من يناولها قنينة ماءٍ، ومنهم من يرتئي نقلها إلى المستشفى.

الدكتور رامي ينظر إلى الناس دون أن يعلّق. يلمس جبينها كأنه

يقيس حرارتها. ثم يأخذها إلى السيارة. في المقعد الخلفي، يساعدها على التمدد.

يضع سترته تحت رأسها، طالبا منها الاسترخاء والتنفس بعمق. يتفرق الآخرون .

ثم يأخذ مكانها خلف المقود. تتحرك السيارة إلى وسط المدينة، للبحث عن فندق محترمٍ يأويهما إلى الصبح.

يجول في أزقتها الصغيرة وعيناه تبحثان في الواجهات. لعله يهتدي إلى بغيته. هاهو فندق يشير إليه سهمٌ على ناصية الزقاق. يطلب من هند ملازمة وضعيتها مع الاستمرار في التنفس العميق. يبرح السيارة إلى حيث يشير السهم .

يختفى بعض الوقت، ليس أكثر من عشرين دقيقة، ثم يعود مسرعا إلى باب السيارة الخلفي ليبشرها بما أنجز. يلتفت إلى المقعدين الخلفيين. هند غير موجودة. تقفز نظراته إلى خارج السيارة تمشطُ المكان حوله. لا أثر لها. يتساءل:" أين اختفت؟ هل

أصابها مكروه أمْ هي تمثيلية من ترتيبها؟ حقا غريبٌ ما يحدثُ."

يرِدُ على باله اختفاء الشمالي في ظروف مماثلة. فيصرخ نافيا تدبير حبس صديقه أحمد أو فقدانه: "لا لا أحتمل حدوث شيء كهذا".

يهتدى إلى الهاتف. يتمعّن قائمة الأسماء بحثا عن رقمها. يتذكّر أنهما لم يقوما بأية محادثة من قبلُ. فينادي عليها بأعلى صوته. الناس هنا في هذه المدينة الهادئة ينظرون إليه باستغرابٍ .

يقترب أحد الفتيان قائلا:

- السلام عليكم. ما لك أ عمّي؟

- وعليكم السلام ورحمة الله. ما فيش حاجة يا ابني شكرا.
يستغرب الشاب من رده فينصرف إلى حال سبيله.
يتسمّر رامي في مكانه حائرا ، ما يربو عن تسعين دقيقة.
قرر عدة مرات إخبار أحمد، لكنه آثر في النهاية أن ينتظر. يزفر عميقا وهو يغمغم:أحمد مش ناقص غمّ.
يقبع خلف المقود في السيارة، مسنِدا ذقنه على ظهر يديه في وضعية هرَمٍ. إلى أن تعِب وغفا.
يستيقظ على نقرٍ خفيفٍ على زجاج السيارة. يفتح عينيه غير مدركٍ لواقعهِ، فصلتْه الغفوة لحظاتٍ عما حدث، فأخذ يتفرّس في وجهِ الرجل الذي أمامه. كان ببزّةٍ عسكرية. إنه شرطيّ يستفسره عن وقوفه هنا.
يعتذر قائلا:
- أنا آسف. كنت أنتظر أحد الأصدقاء، لكنْ يبدو أني غفوتُ بسبب الإرهاق.
- أنت أجنبيٌّ، مصريٌّ على ما أعتقد. هل تعرف المدينة جيدا؟
- نعم أنا مصري يا سيدي، و قد حجزت في فندق اسمه "إسابيلّا" على ناصية الزقاق.
- أهلا بك. إذا احتجت أية مساعدة نحن في الخدمة. لكنْ لا تظلّ هنا. وقوفك هكذا يُربك السير.
- حاضرْ سيدي سألتحق بالفندق حالا.
- تفضلْ.
يدير محرّك السيارة وعقدة في قلبه توجعه.

١٩ البوابة رقم

تصعد جانيت إلى الحافلة وهي تردد: هل أنتَ بخير؟
كنتُ منتشيا بالموقف، لذا لم تسمع مني ردا على سؤالها.
أقف خارج الحافلة، أحلق ببصري بعيدا صوب السماء الصافية. القمر هذه الليلة شامخ مثل ملِكٍ متوّجٍ، والنجوم حوله أميراتٌ يُحلَّيْنَ من لؤلؤٍ برّاق. العالم الفسيح يبتسم سعيداً هذه الليلة. كل ما حولي مبتهج.
شريط ذكرياتٍ جميلة يعدو أمامي الآن، على أن بزغتْ جانيت كزهرةٍ بريةٍ، لبستْ وتزينتْ على طريقة الغجر، تقفزُ أمامي بشعرها المنفوش على كتفيها يزينه عقيقٌ مزركشٌ، يشبه زركشة قميصها الطويل وسروالها الفضفاض..حتى صندلها الجلدي وسمتْه ثورتُها هذه الليلة. فعقصت سيورَه بعشوائيةٍ على ساقيها.
أنظرُ إليها وأنا ممسِك بيديها قائلا: ما أجمل عينيك.
تبتسمُ فأسحبُها برفق وأرشق جبينها بالقُبل. لا أبرحُ حدود جبينها خوفا من الغرق. تطوقني بذراعيها. حُمى العشق الملتهبة لم تفقِدني سيطرتي على الموقف. أتخلّص من طوقها وأنا أمنّي النّفسَ بأشياء جميلة، بعيدا خلف الغيمِ.. فأهمس في أذنها:
- أحبكِ .
توشوش: - أحبكَ أكثر.
-هيا حبيبتي نلتحق بالآخرين.

في طريقنا إليهم أتذكر أننا لم نأكل شيئا منذ قدومنا. السعادة بقلبٍ ممتلئ أغنتْنا عن التفكير في ملء المعدة.

الإيقاعات الصاخبة تترامى حول أسماعنا العطشى، فيستجيب جسدانا بالاهتزاز.

أستدير نحوها سائلا:

- هل أنتِ جائعة؟

- ليس بعد. لا أشعر بالجوع.

-أما أنا فبلى. ما رأيك في سمك مشوي؟

- أووه لذيذ. ندعو كارولين لتتعشّى معنا. فهي تعشق تناول المشويات.

-وكريستي، أليستْ صديقتك أيضا. ادعها إن شئتِ لا مانع لديّ؟.

-أجلْ، لكنْ لم أعدْ أراها.

تضحك مسترسلةً: كدتُ أنساها..سأطلبها أيضا.

تتم دعوة صديقتيْها للعشاء معنا. أطلبُ طاجين تنّ، تشاطرني جانيت نفس الرغبة بالإضافة إلى شواية سردين شهيّ.. كانت الصديقتان سعيدتين جدا بهذه الدعوة. قالت كارو وهي تتنعّم بالتهام طبق المحار والأربيان المقليّ :

شكرا عبد الله، شكرا جاني.. أنتما لطيفان جدا. العشاء لذيذ، التهمتُه رغم أن الوقت متأخر.

تردد كريستي نفس المجاملة تقريباً. ثم تنهض، شاكرةً، إلى الرقص من جديدٍ.

تقول جانيت:
-لم تكملي طبقكِ يا كريستي.
تكتفي بابتسامةٍ ورسمِ قُبلةٍ على شفتيها ثم تغادر.
باسماً أعقِب على كارولينا ويدايَ تفصّصان سردينة:
- انسيْ مسألة الوقت، أنت سائحة الآن، تأقلمي مع أجواء الأماكن التي تزورين.
تنظر إليّ مبتسمةً ، وبحركة من رأسها وعينيها أدركُ تأييدها لرأيي .
كانت تراقب بوداعةٍ، قطتين تتقاسمان السردينة التي فصصتُ.
بعد تناول العشاء، عدنا إلى الرقص من جديد. كان الجميع مندمجا في جو المرح والرقص. الوقت يقترب من موعد مغادرة الصويرة بصخبها الثقافي، إلى فندقنا الهادئ بتنغير. بعد ثلاث ساعات سينبلج الصبح، وننطلق عائدين إلى ديارنا. في قرار نفسي تمنيت لو يتباطأ هذا الصبح ويتواطأ مع ما يخالجني، فيؤجل حضوره إلى موعد بعيد جدا. لأحظى بالمزيد من الوقت مع جانيت والتعرف عليها أكثر. الدقائق تنسلّ بوتيرةٍ غير عاديةٍ، ضدَّ رغبتي، وأنا جالس هنا أحدّث نفسي، في حين جانيت تمرح مع صديقتها كارولين . يبدو أنها أقرب إليها من كريستينا، كانت هذه الأخيرة تلازمهما كظليهما. لكنها آثرت الاختفاء منذ قدومنا إلى هنا. ربما وجدت صديقا تتلهى به وتشاركه كأسا. هي شرّيبة نهِمة. أتمنى ذلك لتدعنا نستمتع قليلا بوقتنا أنا وجانيت.
- سيد عبد الله.

- نعم..

صوت رخيم ينطق الفرنسية بلكنة أمريكية،لا يخفى علي. ألتفتُ:

- أهلا آنسة كريستينا، أين تختفين؟

- مع أصدقاء هناك كنا نرقص. لكني الآن أشعر ببعض التعب.

- هل تحتاجين إلى مساعدة؟ أرافقك إلى الحافلة إن شئتِ.

- أوكي شكرا. أحتاج أن أشرب ويسكي. أين البنات؟

- أنا هنا. هاي كريستي.

-هاي جاني.

تجذبني جانيت من يدي وهي تهمس:" إلى أين؟" يبدو أنها تناولتْ جرعة ثقيلة من مخدّرٍ.

تشُوقُني غيرتها اللطيفة فأمدّدُ رقعة لهيبها قليلا.. دانٍ من أذنها أهمسُ:

- كريستي.

- هل ثملتَ؟

- أقصدُ كريستي شعرتْ بالتعب فطلبتْ اصطحابي إلى الناقلة.

أضحك عاليا معقّباً:

- لا بل صاحٍ جدا حبيبتي..

تنظر إلي نظرةً معاتبةً و حول شفتيها ابتسامة موارِبة.

بصوتٍ متهدّج محمومٍ، شرعت كريستي تغني عن الحب ، وعن رغبتها في حبيب يشاطرها الحب. كانتْ تصبّ لهيب عينيْها في عينيّ. تبدو سعيدةً، وأبدو متورّطا لخطيبتي.

نصعد الناقلة معا، ترتمي الفتاة فوق أولِ مقعدٍ، تساعدها جانيت على التمدد. ثم تسألُها:

عزيزتي، هل تحتاجين إلى مساعدة؟

تشكرُها ثم تغمضُ عينيْها. تروح في غفوةٍ.

كنتُ صامتاً. أدرك الآن الفرق بين جانيت وبين الفتاتين. جانيت خجولة لكنها شجاعة وذكية. كارولينا شجاعة مع طفرة خجل. لذا هي الأقرب من جانيتا.

كريستينا، لا حدود لرغباتها ولا مكابح. الحياة عندها جمالٌ إثارةٌ متعةٌ واستغلالٌ..

كالعادةِ تجلس جانيت بجانبي في الصف الأول، كان النوم بعيد الأمدِ من أعيننا.

اشتبكتْ أيدينا ونحن نحكي. تحدثنا عن كل شيءٍ وفي كل شيء. كثير من الأشياء نلتقي عندها كالهوايات مثلا، وكثير أيضا نختلف فيها كالثقافة. فالعادات التي تؤثث حياتي، تنعدم عندها بالمرة. لكن يوحّدنا الشعور بالأمان. فهو الضمان الأمثل للتحدي والمواجهة. لن نخوض حربا مع الآخرين، لسنا مستعدين للخسارة. لكننا سنمضي براية بيضاء في اليد وقلبينِ مفعمين بالحب.

- ماذا ستشتغل؟

كان سؤالا جاداً ومسؤولاً ، أزاح الغيبوبة التي كانت تغشاني.

- لا أدري لكنْ لي مؤهل دراسي لا بأس به ، ودبلوم تقني يمكّنني من العمل في أية مؤسسة محترمة حكومية أو حرة.

- جميـل، إذن سـنفتح محـلا صـغيرا لبيـع الكمبيـوتر، وكـل آلات التكنولوجيا الحديثة.

سيتكاثر زبناؤنا فيما بعد..

- فنضـطر إلى توسـيع المحـل أو شـراء غيره. سـيكون لنـا أطفـال كثيرون كشعبي. نحن ننجب الكثير من الأطفال. لن تمتنعي طبعا..

تضحك صـارخة: أطفـال؟ يـا للروعـة. أحـب الصـغار جـدا. ننجـب ونتبنى أيضا.

-ونُحدِث جمعية للدفاع عن الطفولة في العالم.

نضحك من جنوننا. يفاجئنا صخب الأصدقاء الذين تجمهروا حول الناقلة. يبدون قلقين.

تظهر كارولين وهي تشير بيديها معا إلى الناقلة وتعدو نحونا. يفتح موسى البـاب مـن الخـارج، فيشـتد الزعيـق والضحكات، تتقـدّمهم كارولين مؤنّبة بضحكتها الصاخبة:

- غير معقول هذا، كنا معا. كيف سِلتُمْ كالماء؟

تقول صديقة أخرى كانت مع الكوكبة التي تعهدتُ بمرافقتهن :

كدنا نجن، بحثنا في كل مكان عنكما.

تستطرد كارولين : وعن كريستي أيضا .أين هي؟

كانت كارو تتحدث دون توقفٍ. أردُّ وأنا أداري ارتباكي:

- آسف أنني لم أخبركِ صديقتي. حدث أمرٌ طارئٌ.

ملتفتا نحو الآخرين أردد: آسفٌ..آسفٌ.. شكرا للجميع. أحبكم.

مبتسمةً، تردف جانيت لتفكّ الحصار وتبدّد حرجي: لا بأس يا كارو

لن نضلّ على كل حالٍ، فعبد الله ابن البلد، ما بكِ أنسيتِ؟ ثم ها كريستي تنام في مقعدها هنا في الحافلة. الأمور بخير.
يأخذ كل واحد من الركاب مقعده لتنطلق الحافلة في طريق العودة.
يستمر الزعيق والضحك والتعب. ثم يهدأ كل شيء بالتدريج. لقد انتصر النعاس أخيرا. ترضخ جانيت لسلطته أيضا.
في الحافلة تنكسب الموسيقى الأمازيغية بعذوبتها، تداعب أوصال السائق موسى و تدغدغ سمعه. إنه يحاول التغلب على النوم. يبدو مرهقا. فاخترتُ الجلوس إلى جانبه لأسامره، مخافة أنْ تأخذه غفوة فتصيرَ كارثة..

البوابة رقم٢٠

أحمد محاصرٌ بصمتٍ رهيبٍ، وليلى بجانبه تشعر بالضيق. تكره هذا الصمت المريب وهذه السرعة المختلّة التي يسوق بها. تارة يخفضها وتارة يرفعها. هي تعلم منه أن بصره ضعيفٌ أثناء الليْل . فيفاجئها قائلا:

- اقتربنا من مدينة وزان. سأستمع لروايتك. أتمنى أن تكون مقنعة.

- سأروي لك ما حدث. فليس لصالحي إخفاء ذلك، أنا مهددة أيضا.

- ماذا تعني؟

- أعني أنه رفع سلاحه في وجهي، وكاد يودي بحياتي.

- أفصحي ماذا حدث؟.

- لنواصل السير حتى وزان. قد أنهار في أية لحظةٍ.

تسير السيارة بنفس الوتيرة. أضواء المراقبة الدركية تظهر من بعيد.

- خفف السير أ سي أحمد من فضلك. لا نريد مشاكل.

تزحف السيارة نحو نقطة التفتيش. يُطل دركيّ على السيارة من الداخل.

ثم يعطي إشارة المواصلة. تنفلت السيارة من رقبة الدركي مسعورةً تلحس الإسفلت

مرة أخرى. بعد مسافة ألف متر تقريبا كانت السيارة في قلب

المدينة. تتسلل إليها
كبقعة ضوء. يختار أحمد مطعما جميلا. تتوقف السيارة بجانبه.
يترجلان معا والتعب يأخذ منهما مأخذا كبيرا. أحمد يتمطى ثوانيَ
ثم يلتفت نحو ليلى متناسيا كل شيءٍ، كأن أضواء المدينة بددتْ
غضبه، فانجلت عنه تلك الهواجس الرعناء:
- لا بدّ أنك جائعة.
تلوّح برأسها عموديا وهي تقول:
- نعم أسي أحمد أموت من الجوع.
تتنهد بعمق. ربما تواتيها اللحظةَ فجوةٌ لتسريب بعض ما يكبس
على صدرها. يدلفان معا نحو المطعم الجميل.
لم تنظر إلى القائمة التي أمامها فوق الطاولة، حين وقف النادل
ينتظر الطلب. تقول وسبابتها تشير إلى أحمد:
نفس ما يطلب الأستاذ.
يسأله أحمد :
- أعندكم سمك؟
- نعم سيدي هاهي القائمة اختر منها ما تشاء.
يتمّ جلب الأطباق حسب الرغبة. ثم يسود صمتٌ رهيبٌ مرة
أخرى.. يكسره أحمد بعد دقائق وئيدة بقولهِ: الأكل لذيذ.
تردُّ ليلى وكوب ماءٍ في يدها قد صبت بعضه في فيها:
- جدا. ثم تسعل بشدة والدموع تتطاير من مقلتيها.
-خذي رشفة أخرى من الماء. لكن انتبهي، لا تتحدثي قبل أن تنهي

شربكِ.

- أجلْ..إني متوترة.

- علينا الآن أن نسرع في البحث عن فندق جيد. الليل يتهاوى بحلكته. ولن نبيت في الشارع.

- نعم علينا فعل ذلك. ما رأيك في صاحب المطعم؟ اسأله قد يفيدنا.

يأخذ منه بعض المعلومات ثم ينصرفان.

في وسط المدينة تتوقف السيارة أمام فندق يبدو أنيقا من بوابته.

بعد دقائق، يحصل كل واحد منهما على مفتاح غرفته. مجهَدةً تجرّ قدميها إلى غرفتها. متمنية له ليلة سعيدة:

-ليس قبل أن أستمع إلى قصتك كمن هوتْ من أعلى قمة، تلتفت متثاقلةً:

-الآن؟

-نعم الآن. ما بكِ؟

-أشعر بالغثيان. لندع الأمر إلى الغد رجاءً.

-ارتاحي قليلا في غرفتكِ. خذي حماما تنتعشي.

كانت نظراتها بائسةً. تسحبُ خطوها إلى غرفتها دون أن تقول شيئاً.

سمعتْه يقول :أنتظركِ.

لم تلتفتْ. لوّحتْ بيدها في الفضاء.وأغلقت الباب.

في ركن منعزل، تحت هدأة الليل وإضاءة زرقاء جميلةٍ، قطيطة تنام نومة هادئةً فوق أحد الكراسي، لم يجرؤ أحمد على إيقاظها. يقتعد كرسيا بجوارها. أغنية جميلة تهدهد المكان.. ينظر إلى ساعة معصمه وهو يتلفّتُ نحو غرفة ليلى.. ترتسم ابتسامة خافتة على شفتيه حين بدت قادمة. بخفّةٍ تسحبُ كرسيا قبالته وهي تقول:

-ça va ؟ (كيف الحال؟)

-pas bien (لستُ بخير)

كان يحدق في عينيها وهي تتحدث. تبدو أفضل.. أو هكذا تتظاهرُ لتخفيَ ضعفها.

انطلقت تسرد عليه كل تفصيلة دقيقة. كان يصغي باهتمام بليغ دون أن يقاطعها، حتى وهو يكتشف النية المبيّتة في تصفيته، من طرف المدعو الشماليّ. كان العرق يتصبب من جبينه وذقنه، ولونه يغادره إلى أجل آخر. أثبتتْ براءتها بتسجيل الحوار الذي يدين الشماليّ بمفرده.

ثم تواصلُ مؤكدةً: حدث ذلك أثناء تفتيشي عن مصباحي اليدوي في السيارة، استعملت هاتفي بحذاقةٍ في غفلة منه..

ظلتْ تتحدث وأحمد ساهمٌ لا يُبدي أيَّ حركة. تتوقفُ عن الكلام فجأةً وهي تنظر إليه. تدنو منه لتحدق في عينيه، كانتا متصلبتين. تلمسُ يده الدافئة ، لم يبدِ تفاعلا، تتحسس يسار صدره، كان النبض سريعا جدا.بصوتٍ متصدّعٍ تسأل:

-أحمد، أحمد هل أنت بخير؟... تهرع لطلب المساعدة. كان الوقت

منتصف الليل حين تمّ نقله بمساعدة مسؤول عن إدارة الفندق، إلى قسم المستعجلات في إحدى مصحات المدينة. سألها الطبيب إنْ كان يتعاطى أدوية لعلاج داء السكري أو الضغط أو أي شيء آخر. تنفي معرفتها بذلك. بعد التشخيص الأولي تبيّن ارتفاع شديد لنسبة السكر في دمه.. قال الطبيب: سيظل في قسم العناية المركزة، على الأقل أربعة وعشرين ساعة. فمتى تستقرَّ حالته يستطع المغادرة..

يبرح الطبيب قاعة الإنعاش بعد توضيب جهاز التنفس الصناعي. في حين تتكلف إحدى الممرضات بحقنه بمادة الأنسولين، عن طريق مصْل موصول بعرق في يده اليسرى، معلّق على مشجب حديدي، قرب سريره. ثم تطلب من مرافِقته الانصراف ، تأبى ليلى إلا أن تبيت في المصحة، للاطمئنان عليه، بجانب الطاقم المسؤول عن القسم. تأتيها مكالمة من إدارة المشفى بعد ذلك لتسوية بعض الأمور. تسرع إلى الطابق الأرضي. تطلب منها السكرتيرة وضع شيك تحت تصرف إدارة المشفى. أو تقديم مبلغ نقدي مهمّ مع توقيع بعض الأوراق الخاصة بلوازم الاستشفاء.

تبحث في حقيبة يدها، تخرج دفترها البنكي، تسلمُها ورقةً منه، بقيمةٍ متفق عليها. ثم تعود إلى قاعة الإنعاش. تثير انتباهَها ورقةٌ معلقة على باب الغرفة الموصَد، مكتوب عليها" يُمنعُ الدخول".

تسحبُ نفَسا عميقا، تزفره بنفْس العمق وهي تقلّب الطرْف

حولها.. في ركنٍ قريبٍ يجثم كرسيٌ كبيرٌ. يبدو لأحد الحراس. تتردد قليلا قبل سحبه. تقف بجواره هنيهةً تفكر، فتهتدي إلى قاعة مجاورة، تدخلها بهدوءٍ تامٍ، تجلب كرسيا ثم ترمي بجسدها المنهوك عليه وهي تكاد تفقد وعيها.

مغمضة العينينِ تلقي برأسها إلى الخلف، تسترجع شريط ما حدث لها في هذه الرحلة البائسة. مواء قطٍ يزعجها. تغمغم: أكره مواء القطط ليلاً بهذا الشكل. أتشاءم منه. تترك مكانها متجهة نحو قاعة انتظار فسيحة. الإنارة خافتة جدا وحركة الممرضات أكثر خفوتا. تظهر نفس الممرضة المسؤولة عن أحمد. تتوجه بسرعة إلى غرفته.

تتبعها ليلى بعينيها. ترقُب عملها من الزجاج. إنها تحقن المصل بأدوية أخرى. تغلق الباب وتغادر. تسألها ليلى عن حالته. تطمئنها هامسةً: "إنه نائمٌ". ثم تدعوها إلى مرافقتها للنوم في غرفتها. تلبي ليلى من غير تردّدٍ شاكرةً إياها.

تستأذنها في إعادة الكرسي إلى القاعة المجاورة ثم الالتحاق بها.

في طريقها تصادف طبيبا يقترب من غرفة أحمد بوزرته البيضاء (مِرْيلة).

تجري نحوه: دكتور من فضلك هل يتحسّن؟

لم ينتبه إليها. يدلف نحو غرفة أخرى. فتعود حاملةً خيبتها إلى غرفة

الممرضات. ترتمي فوق أحد الأسِرّةِ من غير أن تقْلع حذاءها. بعد

دقيقتين كان تنفسها المضطرب ينتظم بالتدريج.
كانت الغرفة فارغة إلا من سريرين ودولاب صغير. تدخل إحدى الممرضات لترتاح قليلا ثم تستأنف مراقبتها للمرضى وتلبية حاجاتهم. كان عددهن في ذلك الجناح خمسة،لا يجتمعن إلا نادراً في غرفة الاستراحة تلك.
تنام ليلى نوما متقطعا، ثم تفيق مذعورةً على صوتٍ تعرف صاحبه.
كان يتحدث بالقرب. الوقت قبيل الفجر. تتسلل إلى خارج الغرفة، دون أن تثير انتباه الممرضة النائمة على السرير المجاور.
الإنارة ضعيفة، لكنها تستطيع أنْ تتبيّن شكل الطبيب، الذي صادفتْ بالليل قرب حجرة أحمد، إنه هو نفسه بمريلته البيضاء وحذائه الرياضيّ، لم تر وجهه هذه المرة أيضا. كان يتحدث بهمسٍ شديد في الهاتف. تتعوذ بالله مغمغمةً: كأنني أسمع صوت الشماليّ، إنني أهذي أو ربما أرى كابوسا.
كانتِ الممرضة تغط في النوم، عندما غادرت ليلى متسحّبةً إلى غرفة العناية المركّزة، حيث يرقد أحمد. خِيطانُ الصبح ترفض أن تتدلّى بوضوح على الأرض. لم تفْصِحْ بعْد عن هويتها. مازال الليل ينافح معاندا، عن آخر أرْماقِه.
الرجل الطبيب لم يعد هنا. تقول ليلى في نفسها: "ربما خلّص مناوبته وانصرف إلى حال سبيله. كنت أنوي استفساره عن حالة أحمد".

بعد دقيقةٍ كان وجهها يلتصق بالزجاج وعيناها مفتوحتان عن آخرهما.

تهمس بصوتٍ خفيضٍ: لا يزال في وضعيته منذ رقدَ ليلة أمس. لم يغيّرها. ربّاه هل سيستعيد وعيه في الصباح أم لا؟

- ليس بعد. وقد لا يستعيده أبداً.

هلوعةً تلتفت نحو الصوت.

- أنت إذنْ الرجل الطبيب الذي...

مقاطعا: نعم، اسمعي ولا تثيري مشاكل.

- ماذا تريد يا عليّ؟

- أريدكِ أنتِ. ماذا ستنالين من هذا البائس غيرَ التعب؟ كم يعطيكِ؟

- اخرسْ وارحلْ من هنا قبل أنْ..

مقاطعا مرة أخرى:

- إنْ تثيري أي مشكل تندمي بقية عمرك، إنْ بقي لك عمرٌ.

مكابِرةً تردّ بثباتٍ مزيّفٍ وقد امتقعتْ:

- أتهدّدني يا شماليّ؟ أنسيتَ من أكون؟

- لا أبدا لا أنسى أنك عميلة خسيسة. تبيعين ذمتك مقابل حفنة دولارات.

تلتفت حولها وهي توشوش له:

طيب أيها النزيه نقي الذّمّة، لقد أسأتَ الفهم، لكنّي لا ألومك. فمن كانت رؤيته ضيقة لن يتمكن من التحليق خارج ذاته. ماذا

تريد مني تحديداً؟
- أنْ تتركي هذا الخَرِف.
ثم يغمغم سارحا فيها ببصره:
بالرغم من وقاحتك فإني أرغب في ودّكِ يا جميلة.
- أنا في مهمّة. ليس لك الحقّ أن تمنعني.
وقْع أقدامٍ يقترب، وصدى همسٍ غير واضحٍ يخترق المكان. يبدد الصمتَ. ترْهِف ليلى السمع فتتبيّن صوت الطبيب المكلّف بعلاج أحمد. إنه يقترب أكثر فأكثر. تشعر باستغاثة وشيكة. تخلصها من قبضة هذا السفاح. تقول في نفسها: هذه الرحلة ترهقني حدّ الاختناق. نسيت نفسي و أسرتي. كلّ تفكيري الآن محدود في تخليص مهمتي بسلامٍ. وإزاحة هذا المعتوه الشماليّ عن طريقي.لا أدري ما أصابه. حقا لا أعرفه جيدا، لكن سينال عقابه قريباً. سيندم ندما شديداً. الإخلال بالواجب خيانة. والخيانة جريمة.
أخذتْ تكرر هاتين العبارتين، كأنها تحفظ درسا في التربية على المواطنة: الإخلال بالواجب خيانة. والخيانة جريمة.
تتلفّت حولها. كان المكان فارغا إلا منها. فرددتْ بصوت مسموع: أنت أجبن مَسخ في العالم.
- صباح الخير يا آنسة. هل قضيتِ الليلة هنا من غير نوم؟
كان الطبيب المسؤول عن حالة أحمد، يخِفّ السير في الممر بنشاطٍ ملفتٍ، ترافقه ممرضة بنفس الخفة.
- صباح الخير يا دكتور. لا بل نمت بعض الوقت في غرفة

المرضات.
لم ينتظرا إجابتها كانا قد ولجا الغرفة.
متثاقلة الخطْو تتقدم نحو سرير أحمد. يلتفت الطبيب قائلا:
- يمكنك الانتظار دقيقة خارج الغرفة من فضلك.
- حالاً يا دكتور.
تعتذر و تخرج، فتسرع المرضة إلى غلق الباب.
متوجسةً تمسح الممر الطويل بعينيها. الشمس ترخي أولى خيوطها باحتشامٍ. تشتد الرطوبة في هذا المكان فتشعر بقشعريرة تنتابها. تفرك راحتيها وهي تتلفّت. قرقعةٌ آتية من السرداب الخلفيّ تشْعرها بوحشةٍ.
تنظر بارتياب حولها.
الإنارة الخافتة تعكس بعض الظلال المبهمة التي تقترب مع القرقعة القوية. السرداب يعكس قوة الصوت القادم. ممرضتان تظهران أمامها.
إحداهما تدفع عربةً عليها أدوية وأجهزة طبية صغيرة والأخرى تحمل قنينات فيتامينات وأملاح.
تدلفان نحو غرفة أحمد. تفتح إحداهما الباب ثم تدخلان معا.
بسرعةٍ تنسل ليلى إلى الداخل دون اكتراث بأمر الطبيب.
ترمقها إحدى الممرضتين، تمشي نحوها بخفةٍ وهي تومئ لها بأنْ تمكث في مكانها.
دون إثارة انتباهٍ توشوش ليلى في أذنها:

-هل فتح عينيه أم لا؟

تجيبها وهي تدفعها بلطف إلى الخارج:

-إنه يحاول.

ثم تضيف: إنه بخير لا تقلقي.

تشعر بفرحة طفلة تنتظر هدية العيد. تدعو له بالشفاء في سرها مرددةً:

"أخشى عليه من انتكاسة مفجِعة".

تقرفص قرب الباب مستأنفةً حديثها: "لا أريد أزمة ترمي بنا في عقر الخوف والشتات مرة أخرى. لكنْ لن أظل أتخبّط وحدي هكذا. لابدّ من إخبار هند، للتفكير سويّاً في ردع هذا الوضيع عليّ". يمرّ من أمامها ممرّضٌ يدفع كرسيا متحركا عليه امرأةٌ شابّةٌ .. يمشي خلفهما رجل شابّ وسيدةٌ كبيرةٌ في السنّ، يبدوان من أقاربها. الرجل يكاد يلتصق بالكرسي، ممسكا بيد المرأة المريضة، يمسح عليها بلطفٍ وهي تتوجع. يبدو أنها في حالة مخاض. والرجل قد يكون زوجها. يدخلون جميعا إلى المصعد الكهربائي. تُسمَعُ ابتهالاتُ السيدة الكبيرة، بصوت يستقر في صدر ليلى استقرارا جميلا.

البوابة رقم ٢١

يدخل الدكتور رامي إلى الفندق مهموما حائراً. يتوجّه مباشرةً إلى غرفته دون أن يلقي التحية. كان المكان شبه فارغ. صوت شخير يأتي من خلف المكتب.

أحد الموظفين ينام على كرسيٍّ في وضعية غير مريحة. يوقظه صرير الباب حين ولج الدكتور إلى غرفته. يلتفت نحو الغرفة رقم خمسة وعشرين في الطابق الأرضي. يهرول إليها فيطرق طرقا خفيفا. يفتح د. رامي مستفهما:

- نعم؟

- السلام عليكم

وعليكم السلام ورحمة الله.

يصمت الرجل برهة والدكتور ينتظر ثم يستأنف:

- المرأة..

- ماذا تعني؟

- التي تنام في الغرفة الأخرى يبدو أن لديها مشكلة.

يتجمد لسان الدكتور وهو يستمع إلى الرجل الذي يسترسل:

- سيدي أنت حجزت غرفتين. الثانية باسم صديقتك ليلى، أليس كذلك؟

- بلى، لكنها لم تحضر لظروف طارئة.

- هي في غرفتها الآن. قد أدلتْ ببطاقة هوية تحمل اسم ليلى هاشمي.

دون انتظارٍ يتوجه سريعا إلى الغرفة المحجوزة. يطرق. لا أحد يردّ. ينظر بارتياب إلى الموظف الماثل بالقرب. مدركاً لِما يجول في رأس د.رامي من هواجس، يستعمل الموظف هاتف مكتبه الثابت للاتصال بغرفة هند. يلعلع الهاتف في الداخل. يأتي صوتها مترنحا:

مَنْ؟

يمسك الدكتور السماعة:

- اسمعي يا هند، من الضروريّ فحص ضغطك الآن. اخرجي إلى الصالة رجاءً.

-لا.. لا أستطيع..

يصله صوتها متقطعا. كانت المكالمة ما فتئت مفتوحة بينهما، عندما استبد الصمت هنيهةً، حتى ظنّ أنها عزفت عن الحديث. ردّد "ألوو" فسمعها ترجئ لقاءه إلى صباح الغد، قبل أن تغلق الخط..

عبثاً يعيد الاتصال، ثم ينقلب إلى غرفته وقد ازداد تجهم وجهه. يرمي بجسمه فوق السرير. يبدو ضجِرا جدا، يفتح نافذة الغرفة ثم يدلّي رأسه، يغمض عينيه ويتنشّق المزيد من الهواء.. يغادر من جديد إلى إدارة الفندق، يطلب من يدلّه على متجر يبيع السجائر. يردّ الموظف بهدوء: "يا سيدي ما نوع سيجارتك؟ سأتدبّر ذلك بنفسي. لا تهتمّ".

ثم يكلف أحد عمال الفندق، ليقوم بجلبها من الخارج.
واقفاً في وسط غرفته، يكاد يفطِس من الغضب. يتقاذفه وابل من الأسئلة دون إجابة... بعد لحظاتٍ قليلةٍ، كان مرة أخرى أمام مكتب الاستقبال.. في يده علبة سجائر وقداحة. يطلب إعادة الاتصال بغرفة هند. بعد محاولتين تردّ على المكالمة، يطلب رقم جوّالها. يحتفظ به ثم يعود إلى غرفته. ناسيا أن يشكر الموظف الذي يتابعه بارتياب.
في غرفته يعيد الكرّة أكثر من مرة. فتجيب بصوت أقلّ نعومة:
- ألووو
- ليه كده يا هند؟ما بتردش ليه؟ زهقت خلاص أنا سايبكم وماشي.
كانت صامتةً، لا يصله إلا نشيجها.
- اهدئي من فضلك وفهميني بالراحة. في إيه؟
ارتفع النشيج وانقطع الخط.
يلقي بهاتفه فوق منضدة أمامه وهو يقول: مش ممكن كده. مش معقول. أنا حسيب ده كله وحرْجع بلدي.
يستلقى فوق وثيرة عريضة، أمام شاشة تلفزيون كبيرة الحجم، كانت مُشغَّلة من قبلُ، من طرف إدارة الفندق، لم يحفلْ بما تعرض. كانت نظراته شاردة. ظلتْ صورة أحمد تتردد عليه . يقول بصوت مخنوقٍ: من أجلكَ يا صديقي تحمّلت هذا العناء. لكن سامحني إذا خذلتك وغادرت. أنت الآن في بلدك. أنا تعبت. لا تنظر

إلي هكذا يا أحمد. قل شيئا.

يسمع وقع أقدامٍ تقترب من غرفته ثم تتوقف. يتوقّع أنْ يسمع طرقا في تلك اللحظة.. بعد فترة وجيزة قام بفتح الباب. كان أحد الموظفين يتحدث في الهاتف. أو ربما يتظاهر بذلك. لم يرد على تحية الدكتور رامي. كان صدى حذائه يتردد في الممر وهو يغادر. تتبعه نظرات د.رامي المُرتابة.. فيتناول علبة السجائر البِكرَ. يُخرج واحدة، يدهسها بإصبعيه بقوة، ويرمى بها فوق المنضدة. ثم يتناول أخرى، يضعها بين شفتيه، يُجهز عليها بقداحته، يمتص نفَسا طويلا، يمجّ الدخان كأنه يعجنه بغضبه، ثم ينفث الجميع كحممٍ، منصهرا في متعةٍ شرسة غير مسبوقة. يُتبِعها أخرى و يتناول كتابابعد ذلك، محاولا الاندماج في القراءة. لكن

سرعان ما يرمي به فوق المنضدة ويشعل رابعةً. لم يستطع إتمامها فيدهسها بإصبعيْه في المنفضة. يفاجئه سعال حاد. يقوم على إثره إلى المغسلة، يمضمض ويبصق.

يُخرج من حقيبته ألبوم الصور. يقلّبه متأمّلاً بعض صور زوجته. يهمهم بكلماتٍ إنجليزيةٍ

«I miss you» ثم يُغلق عينيه.

في الغرفة الأخرى، هند تعاني من ألمٍ فظيعٍ في معدتها لكنها تكابر. كانت تعاني من دوار شديد استتبّ بها.

لم تستجب لمساعدة د.رامي حين عرضها عليها. إنها تحتاج إلى نوع خاص من العلاج.. فما العمل والأزمة تفاجئها؟.

إنها تبكي بحرقة في غرفتها. تلك الحُقن اللعينة تخذلها لأول مرة منذ ابتُلِيَت بها. تقرفص كالبلهاء فوق السرير، تبحث بعينيها في كل مكانٍ حولها. لا شيء غير الفراغ يملأ نظراتها. تخشى أن تتطور حالتها إلى هستيريا تفضحها. بدأت الرجفة التي تنبئ بالسوء، تتبعها حكة في سائر جسدها. ها علامات السعار بدأت تطفو. إنها تئنُّ وحيدة وقد ازداد تكوّرها فوق السرير. إنها مثل وردة تذوي قبل الأوان. توشك أن تسقط من ساقها. تشتدّ حالة الحكّة والوجع. يرنّ هاتفها فجأةً، تنظر إليه بعينين حسيرتين. إنه في الزاوية المقابلة لسريرها، على حافة طاولة صغيرة. الرنات المتواصلة تزعجها. تحاول عبثا التحرك. إنها في حالة عجز شديدٍ. بعد دقيقة يلعلع تلفون الغرفة. كان أقرب إلى سريرها. تمدّ إليه يدا ترتجف. تنفلت السماعة من يدها، فلم تتمكن من استعادتها. تظل ترتعش وتفرك جسدها، ثم تسمع طرقا على الباب. يشتدّ الطرقُ... يليهِ صوت المفتاح يعالج قفل الباب. الصرير يعلن أن أحدا يقتحم غرفتها في هذه اللحظات. ينتابها خوف شديد. يزداد تكوّرها وأنينها. تدفن رأسها بين ركبتيْها، كنعامةٍ تائهة في عرض الصحراء.

- يا إلهي ماذا حلّ بكِ؟

كان د. رامي في وسط الغرفة يصرخ من الصدمة. لقد جاء رفقة الموظف الليلي، للاطمئنان بنفسه حين تنبّأ بسوءٍ. ظل الحارس عند الباب، يتابع في صمتٍ وحيرةٍ..

يعاينُ د. رامي حالتها. يكاد قلبه ينشطر من الأعراض التي شخصها.
لم يستطع فعل شيء إلا أنه همس:
- أ تتعاطين مخدّراتٍ؟
ترفع إليه نظراتٍ مغبونة، يقرأ فيهما استغاثة، كأنها تتوسل بألا يتركها في محنتها.
ملتفتا إلى الرجل الذي ما يزال واقفا، يطلب جلبَ قنينة ماء. كان يريد فقط إزاحته،
للتحدث إليها:
- سوف أحقنك بمادة مضادة للألم، نسبيا حتى نجد حلا آخر.
الآن احكي لي منذ متى تتعاطين هيروين؟
ترد وهي تئنّ: خلصني أولاً يا دكتور أتوسل إليك.
يُحضر الرجل قنينة ماء معدني وهو يسأل:
هل نستدعي طبيبا؟
- أنا طبيب.
- طيب ، هل أستطيع المساعدة؟
- شكرا إذا احتجتُ شيئا سأكلمك. معذرة عن الإزعاج.
- لا أبدا. نحن في الخدمة.
ينصرف الرجل وهو يقول: تعوّدنا.
لم يعِرْ د. رامي للعبارة الماكرة تلك بالاً. كان همُّه
أن يحقنَ هند بمخدر طبي شديد المفعول، لقد ضاعف الكمية، حتى توازيَ قوة المخدّر الذي يحتاجه جسمها الآن.

ينظر إليها بإشفاقٍ. لقد فهم تصرفها الأخير، حين اختفتْ بعد نوبة القيْء المفاجئة.

كانت تدرك ما ستؤول إليه دون حُقن.

يسألها بهدوء تام، وهو ممسك بيدها التي بدأت تستعيد حالتها الطبيعية:

- منذ متى؟

بصوت متحشرج تردّ:

-من ست شهور. وهذه أول نوبة هستيريا أعيشها.

- أين المادة التي تتعاطين؟

- مع أحمد..

- مع أحمد !؟

-نعم. ألم تكن تعلم؟

- أعلم ماذا؟

- أنّ..

تتوقف عن الكلام مسدلةً جفنيها. ينحني رامي بسرعة عليها ليجس نبضها. وجهها تعلوه صفرة. ضغطها ينخفض. أخذ يصفعها صفعات خفيفة. وينضح وجهها بالماء. طفقت تستعيد حالتها الطبيعية و تنفسها ينضبط تدريجيا.

- هند. هل تسمعينني؟ هند.

لقد نامتْ أخيراً. تجاوزتْ نكبتها تلك. على الأقل اللحظة. ظل سؤاله الأخير عالقا دون إجابةٍ، يضرب بأجنجته أركان رأسه.

فيصيبه دوار شديد..

(-ألم تكن تعلم؟ - أعلم ماذا؟.. - أنّ...)

هاتفُها الخلويّ يرنّ، يظهر على شاشته اسم ليلى، بيدٍ مرتبكة يفتح الخط و يشرع في الحديث:

- ليلى أنا رامي. هند تعبانة أوي.

- أهلا يا دكتور. أقلقْتني ما بها؟

- ضعف عام أدى إلى غيبوبة.

- لعله الإرهاق، الحمد لله أنك معها. أريد التحدث إليك أيضا.

- خير في إيه؟ أحمد جرى له حاجة؟

- أحمد في المستشفى قسم العناية المركزة منذ أمس.

- يا خبر. وليه ماحدِّش اتصل؟ أزمة ربو ولا إيه؟

-لا ليس الربو

-السكّري إذن.

- نعم يا دكتور. و ما كنتُ أعلم من قبل .

ثم طفقت تحكي عن خيانة الشماليّ، عن نيته تصفية أحمد و عن سرقة ماله. وربما القضاء عليهم جميعا.

كان د.رامي يستمع وهو يغلي من الغضب. فجأة يسمع طرقا. يلتمس منها دقيقة انتظارٍ. يظل الخط مفتوحاً وقد هاله ما سمع للتوّ من أحداث. يفتح الباب:

- نعم، أي خدمة؟

كان رجلان أمام الباب.

- أهلا، تفضل معنا من فضلك.

منزعجا يسأل: أتفضل معاكم فين؟

- إلى الإدارة.

- لحظة من فضلكم أُنهي مكالمة.

يغمغم: يا نهار مش فايت.

ثم يُطَمئن ليلى ويعِدها بإعادة الاتصال بعد ما ينتهي.

يقفل باب الغرفة ويرافق الرجلين إلى إدارة الفندق.. حيث كان ينتظرهم آخرُ يبدو مَهيباً بينهم. يُلقي الدكتورُ التحية .. فيقف الرجل قائلا:

- أهلا وسهلا يا دكتور نوّرتنا. تفضل بالجلوس..

يجلس الدكتورعلى كرسيّ قبالتهم، وهو يردد كلمات الشكر.. يسهِب المَهيبُ في الترحيبِ ثم يقول:

- أنا صاحب الفندق وهذان مسؤولان معي.

- أهلا يا فندم. ما المطلوب مني؟

يبتسم أحد المديرْن معقِّبا:

- نحن هنا من أجل سلامة زبائننا وخدمتهم..

يتدخل صاحب الفندق وقد ألبسَ وجهَه بشاشةٌ عارمةٌ:

- المصريون أهلنا.

- شكرا يا أستاذ وأنتم أهلنا أيضا. طيّب، يمكنك الدخول إلى الموضوع مباشرة من فضلك.

يستأنف المدير:

- سياسة الفندق وقوانينه تمنع اختلاء رجل بامرأة في غرفة واحدة ، من غير ثبوت صلة زواج أو أية قرابة أُسريّة.

- فهمت القصد. والتحري أمر محبّبٌ.. ولأطمئن حضراتكم فالموظف الليلي شاهِد على الأمر.

يتبادل الرجال الثلاثة نظرات سريعة، دون أن يقولوا شيئا.. والدكتور مسترسل في حديثه وقد احتدتْ نبرته: أنا يا سيدي طبيب متزوج أحترم مهنتي كما أحترم أسرتي.. والآنسة هند صديقة تعرضت إلى أزمة حادة متفاقمة.. تطلبتْ تدخّلي فورا..

يلتفت صاحب الفندق إلى مرافقيْه وقد قطّب:

ليست الرواية التي بلغتني هكذا. كيف لا تمدون يد العون في الوقت المناسب، بدل نقل أخبار غير صحيحة؟ ثم ينهض مستأنفا: أين الفتاة؟

وهو يعتذر بشدة متهما موظفيه بالتقاعس.

ينطلق الدكتور إلى غرفة هند، يتبعه صاحب الفندق. يطرق بهدوء ثم يفتح و يطلّ عليها. ما تنفكّ نائمة. كان الغطاء متدلٍّ تحت السرير. يلتفت نحو الباب حيث يقف صاحب الفندق، قائلا:

- ما فتئتْ تحت تأثير الدواء. لم تنمْ إلا قبل دقائق. سنغادر الفندق عندما تستيقظ.

- كيف تغادران؟ أنتما باقيان معنا ليلة أخرى. هكذا حجزكما.

تتمطى هند فيقع باقي الغطاء على الأرض. يظهر جسدها الممشوق متناسقا تحت البيجاما الضيقة. يسرع د. رامي إلى غلق الباب. طالبا من الرجل المغادرة.

ويغادر هو أيضا.

في غرفته يعاود الاتصال بليلى. يخبرها بقرار السفر إلى وزان، حيث بات لقاء أحمد أمرا محسوما بعد الأحداث الأخيرة، تلك الأحداث التي لم تعد تنفع إزاءها مواربة ولا زوغان.

البوابة رقم ٢٢

تقـول ليلـى :- التعقيـدات تتطـور يـا د.رامـي. لسـتُ مطمئنـة.
- سنسـتأنف السـفر إلـى وزان، حالمـا تسـتيقظ هنـد..
- إلى اللقاء
يغلـق الخـطّ مخاطبـا نفسـه بصـوت مسـموع: آه يـا رامي، كيـف وافقـتَ علـى رحلـة خيوطهـا متشـابكة منـذ البدايـة؟ يجـول ببصـره المضـطرب في الغرفـة. يتفقـد أشـياءه.. مـا يـزال كل شيء مكانه بنفس الترتيب في الحقيبة، كما خرج بها من بيته في تورنيتو. لـم يفتحهـا إلا لأخـذ ألبـوم الصـور. يتنـاول قـارورة عطرٍ. يضـغط على زرهـا. تتنـاثر حبيبـات العطر حولـه. لا يرفـع إصبعه ، كأنه يستمتع بنشيشها. كأنه يغسل بالعطر تعب ليلة طويلةٍ. عيناه المغمضتان تريان صورا لذيذة في الذاكرة، تقاطعها أخرى معتمة. يُفيـق مـن هذيانـه على منبـه هاتفـه. يكسـو تفاصـيلَ وجهـه بعـضُ ارتياح.. يمسح ببصره أرضية الغرفة قبل مغادرتها. يلاحظ عنكبوتا سـوداء تـداعب خيطا يعْلق بقـدمها الدقيقـة وهي تتدلى من إحـدى زوايـا الغرفـة. تشـمئز عينـه لرؤيتهـا. فيصـفق البـاب خلفـه محـدثا صوتا قويا. حقيبته في يده، يتوجه إلى الإدارة لاسترجاع جواز سفره وبطاقـة هنـد. ثمّ يسـرع إلى غرفتها. يطرق طرقا خفيفا كعادته. لـم يتلقّ إجابةً في الوهلة الأولى، يعاود الكرّة وهو يبتعد قليلا

مستخدما هاتفه، تردّ متثاقلة:

- ألو

-أهلا يا هند. ممكن أدخل؟ أنا قُدام باب الغرفة.

- نعم تفضل يا دكتور الباب مفتوح.

ألْفاها جالسة فوق السرير. ترسِل نظراتٍ بائسة بطرف عينيها، دون أن تجرؤ على رفع رأسها.

سِمات الخجل والندم تعلو وجهها.

- يلّا بنا.

- إلى أين؟

- نروح لأحمد وليلى.

- حقّا؟ ثم تتحركُ كعجوزٍ ترغب في النطّ فلا يطيعها جسمها الضعيف.

يسود الصمت بينهما لحظةً ورامي ينظر إليها وقد كستْ وجهَهُ سماتُ الشفقة والاستنكار. فيسمعها تقول: دكتور هل يمكنني تجاوز محنتي؟

- بكل تأكيد مادمتِ بعيدة عن هذه السموم.

- إن شاء الله سأحاول.

يقول وهو يناولها معطفا خفيفا كان على المشجب، ويساعدها على ارتدائه:

- أنتِ لا تستطيعين المشي.. يمكنك الاستناد عليّ.

شكرا يا رامي سأحاول الاعتماد على نفسي.

يخرجان معاً. تجلس في صالة الانتظار بالفندق لحظاتٍ قليلة ثم يغادران معاً. ممسكاً بيدها إلى السيارة هذه المرة، كانت تبدو في هوانٍ شديدٍ. يسبقهما أحدُ الموظفين إلى فتح الباب الأمامي. وآخرُ بالحقائب إلى الصندوق الخلفي للسيارة.

خلف المقود كانت زفرات الدكتور رامي تتصاعد. وهند تشرد ببصرها الفارغ حولها. يطلب منها مساعدته إن أخفق في تحديد الجهات. ثم يسود الصمت من جديدٍ..ينظر إلى ساعة يده كان عقرباها يشيران إلى السابعة والنصف صباحاً. الشمس تبسط أشعتها الدافئة. يربطان حزامَيِ السلامة وتنطلق السيارة في طريقها إلى مدينة وزان الجبلية.

كانتْ هند تنظر إلى الطريق المتعرّج دون أن تقول شيئا. تتحاشى النظر في عينيِ

د.رامي إذا حدثها..

تهمهم ونظرها يتشتت مرة أخرى بينها والفضاء الشاسع:

"ها قد تكسرت براءتي. إني الآن مجرد أنثى تافهة

تتعاطى مخدرات ثقيلة. تعرّتْ حقيقتي أمام صديقي الطبيب الذي كان يقدّرني قبل ساعاتٍ، كامرأة ناضجة ذكية، ذات مالٍ وجمالٍ".

بصمْتٍ تندلق دمعاتٌ من عينيها البائستين. ترسم جدولينِ تائهينِ على وجهها الحزين، وهي تلعن نفسها في سِرّها مستأنفةً حوارها:

"إني أفكر في رمي نفسي من فوق هذه المرتفعات. علّني أكفّر عن خطيئتي. علّني أستعيد،براءتي المهدورة، في عالمٍ لا مروّجين فيه

ولا مخدرات".
تشتت حولها نظراتٍ تشبه نظرات محتضرٍ مقبلٍ على الرحيل، وهي تهمس بصوت كالأنين:
-أنا لا أستحق أن أكون هنا بجوارك يا دكتور. ولا بجوار أي رجل آخر. حتى أحمد الذي دفع بي إلى هذا المطبّ الفظيع من حياتي، أكرهه في هذه اللحظة كما لم أكرهْ أحدا من قبل.
-هوّني عليكِ يا هند.
تواصل دون إعارة انتباهٍ لما قاله:
- لأنه لم يمنعني بجدية. كان تحذيره هزيلا.
أمقته في هذه اللحظة بقدر ما أمقت نفسي.
تظهر إشارة من بعيد تدل على وصولهما إلى منطقة "دَرْدارَة"..
تنقشع بعض المقاهي، فيلتفت إليها قائلا:
- هل ترغبين في تناول شيء معيّن أجلبه لك؟
-لا أرغب في شيء.. شكرا لك، لقد تناولت قطعة شوكولاطة هذا الصباح.
- طيب عن إذنك أشرب فنجان قهوة، بسرعة وأرجع.
تومئ برأسها بالموافقة. كان قد فتح باب السيارة ونزل منها. جلس يتناول قهوته مع قطعة فطير و جبنة، أو زبدة وعسل. أسرع النادل في تلبية حاجته. المقهى ليس بعيدا.
مكتئبةً تنظر حولها بحزن عميق.
هالاتٌ سوداء حول عينيها تشبه قتامة الجو هذا الصباح.

فالشمس التي بزغت قبل قليل في شفشاون، تُحجَب هنا في دردارة ببعض الغيوم . يبرد الجوّ، يبدو هو الآخَركئيباً.

يعود د.رامي إلى السيارة حاملا معه قطعة فطير بالعسل وفنجان قهوة:

- تفضلي.

تمدُّ يداً مرتجفةً إلى الفنجان. تتنشَّق عبير القهوة بالتذاذٍ. تغلق عينيها لحظاتٍ. ثم تُفرج شفتيها عن كلماتٍ تعانق بخار الفنجان: "اشتقتُ إليكِ يا أمي. رائحة القهوةِ تذكرني بأمّي. سألحقُ بكِ قريبا جدا.انتظريني"..

كانتِ الدموعُ تندفنُ تحت ذقنها. والدكتور رامي خلف المقود يرقب حركاتها المضطربة.

القهوة تنفلت من الفنجان على ملابسها. يتابعها وهو يقول في نفسه: "تبا لصناع المخدرات. تبّا للمالِ حين يكون في أيادٍ غير أمينةٍ. أخشى من نوبة أخرى تهاجمها الآن أو بعد قليل".

تفاجئه بطلبها: دكتور من فضلك حضِّر لي حقنة ثانية.

- حقنة إيه؟

- الدواء.

- أنا عامل حسابي. كملي فطارك الأول.

كان يخاطبها كمن يخاطب طفلة. كان ذلك قاسيا عليهما معا. كانت نظراتهما مشوبة بالأسى والحسرة.

محْبطةً تلوي رأسها جهة اليمين، ترسل نظرات متوسلة إلى السماء

الرمادية.
السيارة تسير في الطريق العامّ. لقد قطعت مسافة ليست قصيرة حين تراءت لهم من بعيد لوحة عليها اسم "بْريكْشَة" ، قرية صغيرة هي الأقرب إلى مدينة وزان، تجاوزاها بسرعة.
يرنّ هاتف هند مرة أخرى، تفتح الخطّ ، صوت ليلى يداعب سمعها هادئا كالنسيم:
- ألوو هند.
لا تردّ عليها. تسلّم الهاتف لرامي .
تتابعه هند بنظراتٍ يائسةٍ وهو يتحدث ثواني و يغلق الخط.
تنظر إليه دون أن تنطق بشيءٍ، يفهم الرسالة فيطمئنها:
- هي في انتظارنا. قريبا نلتقي وتنتهي هذه الكوابيس.
- أتمنى ذلك. تعبت جدا.
- قولي تعبنا حتى ملّ منا التعب.
- آسفة.
- لا عليكِ. سوف تتعالجين. أنا أيضا دخنت كثيرا بالأمس، أشعر بثقل يجثم على صدري.
تُحوّل نظرها إلى الطريق وهي تنكمش فوق المقعد.
يرنّ هاتف د.رامي. يتجاهلُ الهاتف هذه المرة. ربما يسابق الزمن ليكون بجوار أحمد.
السيارة تعدو في اتجاه مدينة وزان. بدأتْ تظهر بناياتها. يسود الصمتُ. تكسّره الرنات المسترسلة، يرمقُ رقما

دوليا. يعطي إشارة وقوفٍ. يترجل بسرعة، يفتح الخط غير بعيد ويشرع في الحديث. تلاحظ هند اهتمامه الكبير بالطرف الآخر، كان يضحك ليُخفي توتّره. يبدو ذلك من حركات يديه التي يلوّح بهما وهو يتحدث.

باهتمامٍ تتابع حركاته، رغم تورطها في كربها الرهيب. كانت تتوقّع أنه يخفي عنها شيئا يتعلق بأحمد.

تهمهم: "كيف به يصطنع الضحك. حتى حركاته غير منسجمة مع الحالة التي يمثلها الآن".

في لحظةٍ يقرفص وهو يتحدث، كأنه يكلّم طفلاً بجانبه أو يهمّ بتقبيله. وفي أخرى، يلفّ في مكانه كأنه يراقص امرأة. تبدو حركاته مختلّة فعلا. لا يدرك أنه في الشارع. يرفع وجهه ضاحكا بصوت مسموعٍ. ثم يغلق الخط وابتسامة تدثر وجهه. لكنْ ما إنِ استلم المِقود حتى تجهّم من جديد..

تسأله هند والخوف يملؤها: هل من مشكلة؟

- إنها أسرتي. زوجتي وابني.

- هل هما بخير؟

- هما بخير فقط يفتقداني.

يستغلّ الظرف كي يلهيها بعض الشيء، فيشرع في الحديث عنهما.

كانت هند تصغي، وهي تحلم بأشياء جميلة كانت مؤجَّلة في حياتها. ضاعت هي والأشياء الجميلة المؤجَّلة وحياتُها.

ينظر حوله فجأةً قائلا: أخيرا وصلنا بسلام إلى مدينة وزان. مازلنا

في أول النهار. - كان بإمكاننا تقليص المدة أكثر.
- نعم، لكن قطعنا المسافة في توقيت مناسبٍ جدا. الأهمّ أننا هنا حيثُ أحمد وليلى.
يسكتُ قليلاً ثم يستأنف بصوتٍ خفيضٍ: والشماليّ...

البوابة رقم ٢٣

كان الوقت فجراً، عندما انطلقت الناقلة في طريقها إلى تنغير.
كنت أسامر موسى وأضاحكه. أعرفه منذ شهورٍ. أتذكر جيدا ذلك المساء الربيعي من السنة الماضية، حين قدِم من تيشكا ، يبحث عن عملٍ. كنتُ أول من قابل من الأشخاص في ورزازات.
رحبتُ به ثم شربنا معا كأس شاي بالنِّعناع. كنت سعيدا لأنه من بلدة أخوالي. وزاد
اهتمامي به حين أبلغني أن معرفته بهم وطيدة. فاقترحتُ عليه أن يشتغل مع إحدى المجموعات السينمائية التي أعرف. فرح كثيرا باقتراحي فقال: "حبذا لو أشتغل سائق حافلة، فلديّ خبرة طويلة في قيادة العربات الكبيرة". فتمّ إدماجه سائقا في أحد فنادق مدينتي الصغيرة تنغير. كان تعليمه يتيح له فهم اللغة الفرنسية وبعض الإنجليزية. توطدتْ علاقتنا أكثر حين طلب يد أختي نجاة.
لم أتردد في قبول مصاهرته لدماثة خلقه. قالت أمي حينها: إنه من بلدتي وأهلي يعرفونه. إذن هو مأمون الجانب.
مع مرور الأيام، أضحى ذراعي الأيمن، أحبه وأؤمّنه على أسراري. هو أيضا يبادلني نفس الإحساس. فعندما علم بحقيقة مشاعري نحو الفتاة الفنلندية، شجعني بقوة. من أهمّ ميزاته التي أحبُّ: تفانيه في عمله، و إخلاصه لنجاة أختي.

ينبلج النهار فيفرّ الظلام إلى معاقله. الشمس جميلة على غير عادتها هذا الصباح. أهمس بالأمازيغية لموسى، وهو خلف المقود. يقود الحافلة بثبات وعزم جميلين:

- تْفولْكِي تافُّوكْتْ غاصَّادْ

(جميلة الشمس هذا اليوم).

يضحك معقّبا:

-تَايْري لِيلانْ غُولْنَاكْ إيفُولْكِينْ آ مْدّاكْلِينُو.

(الحب الذي في قلبك هو الأحلى يا صاحبي).

تتصاعد قهقهاتنا وننسى، في غمرة الألوان الوردية، أولئك النائمِين داخل الحافلة..

فإذا بيد ناعمة تتلمّس قفاي، ألتفت وأنا مدركٌ مَن صاحبتها. لا أحد يجرؤ على فعلها إلا حبيبتي. كانت تبتسم وعيناها قد تورّمتا من النوم. أستقبِلُها بشغف العاشقِ، أمسكُ أناملها، أقبّلها ثم أسحبُها إلى مقعديْنا.

أهْمس لها:

- حين نعود سنحتفل بخطوبتنا.

- لا أحد يمانع؟

- لا أحد يجرؤ أن يقف في وجه رغبتي.

- حتى ماما؟

-حتى ماما..

ثمّ أواصلُ وكأني أحدثُ نفسي:

-لإنها تحبني جدا، لن تمانع.. هي على قَدر من الذكاء يجعلها توافق. سوف تضحك طويلاً..وأتوقّع أن تقول لي من بين ضحكاتها: "أخشى ألا تحتمل هذه الرومية (تاروميتْ) العيش معنا.

-سوف أقنعها كالعادة بعباراتي الهادرة، وأنا اضحك أيضا، لأثير بعض غيرتها الجميلة:

- أحبها يا أمي.

وكأني سأقرأ الغيرة في عينيها الخضراوين الجميلتين. فأستدركُ: وأحبكِ أكثر. لا امرأة في العالم تبلغ ما لكِ في قلبي أمي. أنتِ أجملُ النساء.

أمسك يديْ جانيت معاً وأنا أقول:

-فعلا أمي أجملُ النساء.

تردّ وعيناها تبسُمان:

-بالتأكيد هي جميلة. أحبها أيضا.

أغمغمُ: لا يا حبيبتي، لن تدركي تماماً ما أقولُ.

تسكتُ ويداها تعصران يدَيّ بحميمية مفرطة.

شرعتُ أحدثُها عن البلدةِ وعن عاداتنا. عن الأشياء التي يمكن أن تكون صادمة لها في البداية، حتى تستعدّ لمواجهتها.

كنت أحكي وهي تنصت بشغفٍ،ووجهها إلى وجهي كأنها تقرأ ملامحي.

قالت: أنا أعشق المغامرة..

- لا أرغب في أن يكون زواجنا مغامرة يا جانيت. المغامرة مقامَرة.

- المغامرة التي أقصد مقامَرة بأشياءَ هي جزء مني. لتكتسحني

أخرى، برغبة عيشِها واكتشاف ما فيها.
- أتمنى ذلك وأتمنى أن تثْبتي عند المواجهة.
- إنك تخيفني بقولك هذا يا عبد الله. لا أحب الانكسار. بالحب نستطيع، أنا مصِرّة على ذلك.
- نعم بالحب نستطيع.
وفي داخلي إحساس يعكس مخاوفي:"وهلْ يُعوَّل على الحبِّ وحده؟ سوف نرى. قد ننجح. لمَ لا؟".
كانت الحافلة تقترب من المدينة الجميلة. ذات البنايات الحمراء على غرار مراكش الحمراء.
هذا اللون للطلاء المعروف هنا، يمنع حرارة الشمس القوية من التسرب إلى الداخل.
تبدو البنايات متشابهة. تُشعِر الناظر إليها بتآلفِ أهلها، وتوادّهم الجميل. كأنّ المدينةَ و القرى المجاورةَ امتدادٌ لا متناهٍ، شاهقٌ شهوق قممِ الأطلس المحيطة به. ينصهر في قلوب ساكنيه ومحبتهم لبعضهم.
تصل الحافلة أخيرا إلى مستقرِّها أمام الفندق. ينزل الجميع سعداء برحلتهم. يدخلون إلى غرفهم مودعين بعضهم إلى لقاء آخر.
تستأذنني جانيت للدخول إلى غرفتها أيضا قائلة:
- سآخذ حماما فاترا يذيبُ بعض الإرهاق. كانت رحلة رائعة بالفعل.. شكرا لأنك معي..
تطبع قبلة على خدّي وتنصرف. تلتفت نحوي بعد بضعِ خطواتٍ.

كنتُ لم أبرحْ مكاني بعدُ. أرقبها. تلمّحُ بيديها معاً برغبتها في زيارة أسرتي في المساء. أغمزُ لها بالموافقة، فتنتشرُ في ردهة الفندق كعبير وردةٍ برية. تقفز في زواياه برقصة غجرية، وهي تردد أغنية تشبهها. مبتسماً تودعها نظراتي إلى أن تختفي. كانت تلك الرغبة متبادَلة.. أخفيتُها عنها لأبدع مفاجأة جميلة في المساء..

التحقتُ بموسى الذي ينتظرني داخل الناقلة، لنعود معا إلى البيت.

في بلدتنا شيء لا يمكن تصديقه، البنات العازبات لا يقابلن الأقارب الذكور وخاصة العزاب منهم، ولا يكلمنهم إلا باستحياء تامّ. أو من خلف مناديلهنّ المتدلية على وجوههنّ. لكن عندما يتسامرن ليلاً، يحكين عنهم بتوصيفات دقيقةٍ جدا. يعرفن عنهم أكثر مما يعرفون عن أنفسهم.

أختي نجاة ذات السابعة عشرة، عندما أخبرتها برغبة موسى. ابتسمَتْ ولم تعقِّبْ.

كانت هي الفتاة المؤهّلة للزواج بين أخواتي الأربع. كان سنها مناسبا جدا÷هي الكبرى. ولمّا لم تطلب رؤيته ضحكتُ قائلا: ألا ترغبين في رؤية صورته مثلاً، قبل موافقتك عليه ؟ قد لا يعجبك. ردت مبتسمة بما تعلمتْه من كلمات عربية في المدرسة، ومنديل رأسها مسحوبٌ على فمها يخفي شفتيها وجزءا من أنفها: زْوِينْ شُفته. ثم تهرب وصوت تنورتها الطويلة يرسل خشخشةً خلفها. يتبعها سؤالي ممزوجا برنة غضب مفاجئ:

-آجي هْنا كيفاشْ شُفتيه؟

تـردُّ بصـوتها الرقيـق، مـن الحَـوش إذْ تجلـس أمـام فـرن تقليـديّ، تطـــرح فـــي فمـــه الحـــامي أقـــراص العجـــين المختمـــر:

- طلّينا عليه من السطح.

-عفريتات.. ما كتحشموشْ.

كنت واثقا من صِدقها، فكم من مرة ضبطتها خلف الباب، تُطلّ من ثقب المفتاح.

ومـا إنْ تلمحْني تهـربْ. كانـت خشخشـة تنورتهـا تفضحها. فهمـت الرسـالة دون أن أفضّ ظرفها. ولـذلك سـعدتُ حين أعـاد طلبه. لـم يعـيّن إحـداهن. قـال لي ذات زيـارةٍ لبيتنـا، ونحـن بـالقرب مـن خـمّ الأرانب:

- يا عبد الله، أتمنى مصاهرتك.

قلت مموّها وأنا أنكت التراب بعودٍ في يدي،دون أن أرفع إليه عينيّ:

- أنا عازب مثلك. لو كانت لدي ابنة لزوجتك إياها دون تردد.

فيردّ بتمويهٍ آخر:

- لا يا صديقي أقصد إن كانت لديك أختٌ أو قريبةٌ.

أصمتُ وأنا أقرأ خلفية كلماته..

مدركا لما يجول في خاطري، يردف:

صدِّقني إن تكنْ لديك أخت أو قريبةٌ تسعدْني مصاهرتك.

مطّردا: إذا قبلتَ بي فردا منكم، طبعاً.

أردّ بصوتٍ هادئ جدا:

- مرحبا أخي .. ونسيبي.

لم يتمالك نفسه إلا وهو يعانقني. قائلا:

الحمد لله.. و الشكر لله.

- لم نعرف بعدُ رأي الفتاة.

كانت جملتي تلك كصفعة على خده، أعادته إلى الواقع. نظر إليّ متوجّساً.

-لن أكون كباقي أهلي هنا. أنا متعلّمٌ لا تنس هذا يا موسى.

أطرَقَ قليلا ثم قال:

-ليكنْ، وأنا أكره أن تُغصَب الفتاة على شيءٍ.

صمتنا معاً. لم أعِدْه بشيءٍ، ولم أحدد معه موعد الزيارة المقبلة. لم أدْعُه إلى الداخل هذه المرة، لاحتساء الشاي معي في أعريشْ (غرفة صغيرة من الطين والقشّ، تكون باردة في الصيف، دافئة في الشتاء) الذي يوثر الجلوس فيه كلما زارني. وهي خارج الباب الداخلي للبيت.

تناولنا الشاي قرب البئر هذه المرة. وتوادعنا هناك على غير العادة. سار إلى غرفته في الفندقِ، غرفةٍ صغيرة جدا ،غير مأجورةٍ تحت السلالم، بجوار غرفة البستاني، وبعض الطباخين الوافدين من ورزازات.

سألته، ذات لقاءٍ في مقهىً مطلٍّ على عينٍ جارية، إذا كان يملك بيتا؟

ردّ عليّ بالإيجابِ، وعقّب: ليس هنا بل في تيشكا. بيتا جميلا

مستقلّا ومجهّزا بأفرشة عصرية.. ويقصد بالعصرية غرفة نوم كاملة، مطبخ بفرن غازي، ثلاجة وأواني معدنية. ليست من الطين أو البلاستيك على غرار ما يباع في البلدة. ثم صالون مغربي بزرابيّ مزركشة وحمّام برشاش ماء. أتصوّر أنه لا
يخلو من طابعٍ تقليديّ، بألوانه الساخنة. لقد فهم القصد من سؤالي. فأخذ يُشِيد
ببيته وبطبيعة بلدته، قال: رغم قساوة البرد في الشتاء، فإنها ممتعة، وتستقطب الزوار من بقاع العالم، لمشاهدة الثلوج البيضاء واللعب بها. إنها رزق الله. تتحول الندف البيضاء إلى جداول باردةٍ رقراقة في الربيع، تسقي النسل والحرثَ.
بيته الذي وصفه لي ، حلمُ كل فتاة قروية. إنه المشتهى الذي تنشده. يحاكي
حلم الحصول على وظيفة محترمة في المدينة وسيارة جميلة.
أبديْتُ سعادتي بما أخبرني مهنِّئا: تبارك الله عْليك.
ابتسم راضيا مطمئنا وهو يقول: عُقْبى لك.. ضحكت بصوتٍ مرتفعٍ قبل أن أقول:
لا لا يا صديقي ليس هنا..
- أين تنوي الهروب؟
- أنوي التحليق بعيدا.
-حظا موفقا.
-شكرا صديقي.

البوابة رقم٢٤

يرتشف موسى ما تبقى من شايِهِ ، ثم يستأذن وهو عازم على أمرٍ.
يودعني بسرعةٍ وينطلق يحثُّ الخطو نحو الفندق. لم أشأ أن أسأله عما شغَله فجأةً. ليس من عادتي إقحام نفسي في شؤون الآخرين، حتى وإن كانوا قريبين كموسى.
ولهذا يحبني أصدقائي الأجانب بوفرة. ربما هذه صبغة اكتسبتها من معاشرتهم.
ولا أنفي أن بالي ظل مشوّشا على موسى. لكني لم أجرؤ على سؤاله.
تميل الشمس إلى المغيب. تميل معها هواجسي. تنمحي كلها وأنا أتذكر موعد جانيت..أهرول إلى البيت. كانت نجاة أول المستقبلين ببشاشتها المعهودة، تبالغُ في الحفاوة هذه المرة، أفهمُ سبب غلوِّها فأطمئنها قائلا: ستسمعين الليلة خبرا يفرحك. يطفح الحياء على وجهها الأبيض حتى علته حمرة جميلة. تنظر إليّ بعينين باسمتين ووجهٍ مشرقٍ، ثم تلثم كُمَّ قميصي وتعدو بالخَبَر الطازج إلى أخواتها الثلاث: رقية فاضْمة ومامّاسْ..
كل واحدة منهن تكبر التي تليها بسنة واحدة. حتما ذهب ظنها إلى خطيبها، وهذا الأرجح من غير ريبٍ.
لكنّ موسى ما زال ينتظر. لقد راوغته قليلا بإيعازٍ من أمي.. تلك

خطة تعتمدها أسرة الفتاة لتحفيز العريس، واستدرار اهتمامه.. هو نوع من الدلال أيضا، تتناقله النساء مع بعض التزويق، للتباهي ردحا من الزمن..

يرن الهاتف ثم يتوقف. إنه موسى.. يعطيني إشارة برغبته في محادثتي.

يستأذن، خشيةَ أن أكون نائما أو غير مستعدّ لذلك. إنها أخلاقه الجميلة.

. كنت أكثر منه تحررا، بل وأجسر بكثير. يردد علي كلما تحادثنا: إني أغبطك.

كنت أعرف ما يجول في نفسه من خلال ارتباكه وهو يتحدث، فأتدخل لأكمل عبارته أو أوضح ما يرمي إليه دون تعقيد. فكان يضحك قائلا: تماما هو ذاك.

عندما استأذن قبل قليل للذهاب إلى الفندق، بدا متوترا.. أدركتُ أنه يرغب في الإفصاح عما يشْغله، لكنّ الحياء كالعادة يمنعه. فقررتُ أن أحسم الأمر بعد إنهاء حمّامي.

وأنا تحت رشاش الماء الدافئ. أدلك جسمي بالليفة والصابون تسيح قصة موسى مع الرغوة. فيتوقف التفكير في أمره. وتغزوني هواجس أخرى دليلها هذا الوجيف المضطرب. جانيت بعينيها الزرقاوين تُطل من بين حبيبات الماء، تدغدغ قلبي، فأشعر بارتخاء يغزو جسدي.

أنضح وجهي بحفناتٍ من الماء البارد. أشفط شعري بحفنة أخرى

باردة. فأتحرر من الارتخاء الذي أحكمَ قبضته عليّ.
بدأتُ أنتعشُ. أكملتُ حمّامي بسرعة، ارتديتُ ملابسي ثم غادرتُ غرفتي. لا أرغب في النوم الآن. أحتاج إلى مزيد من الحيويةِ هذا المساء.
ناديت نجاة، كانت تتسكع بالجوار، كأنها ترقبني. تحمل في يدها مناديل مزركشة، وبعض الألبسة الجميلة، مما ترتدي النساء في مناسباتٍ معينة. أسِرُّ إليها بخطبتي لجانيت. فتصعق ثم تدخل في هستيرية من الضحك. كنت أكتفي بالنظر إليها، إلى أنِ استعادت إدراكها، فقلت بهدوء تامّ: أعدّي عشاء جيدا، موسى قادم أيضا. تختفي وهي تصدر شهقات جميلة. أخفّ الخطْو إلى الخارج وعدْوى الضحك تلاحقني.
يرنُّ هاتفي، إنها جانيت هذه المرة:
-هلّو جانيتا. كيف الحال؟
- هَلّو حبيبي، إني سأزوركم الليلة. هل نسيت ذلك؟
- لا لم أنس.
- هل أخرج الآن من الفندق لأنتظرك عند الباب؟
- عدّي إلى عشرة ثم اخرجي.
كنتُ قد بلغتُ باب الفندق وهي ما تزال بالداخل.
تفصل الفندقَ وبيتَنا مسافةٌ غيرُ يسيرةٍ، لكني قطعتها كالريح..
التقينا عند المدخل. تبدو أجمل من أي وقت سابق، كأميرة زادها المساءُ إشراقاً.

نسيم جميل يداعب خصلاتها الشقراء وهي تتفحّصني قائلة:
يا للياقتك الجميلة. تبدو كبطل فيلم سينمائي.
- وأنت فتاة البطل و أحلى من بطلات السينما.
ألتفتُ نحو شخصٍ يدلف تجاه حديقة الفندق.
موسى يبدو منهَكا. أناديه فيهرول نحونا ولسانه يردد:
- كنت أنوي محادثتك في أمر.
- تفضل. يا موسى هات ما عندك.
- كنتُ... أريد... أنْ...
- ما بك أكثر ارتباكا؟ قد شغلْتني.
- سأقولها، أريد أن أعرف رأي أختك الآن. أريد الحقيقة، فإذا رُفِضتُ فلا تتردد في إخباري. وشكراً.
يحني رأسه هامسا: هذا كل ما يقلقني.
أضحكُ وأنا أُمعن في المخاتلة:
- إذا قلت إنها رفضتك. فما عساك أن تفعل؟
يمسك رأسه بكلتا يديه وهو يقول: أحقا؟
- للأسف.
ممتقعاً، يغادر دون أن يتفوه بحرفٍ.
أتبعُه وأنا أقول:
الآن ازداد اطمئناني. لن أندم أبداً أني زوجتك أختي.
يمسك بذراعي والفرحة تغشى وجهه. يكتفي بالنظر إليّ. فأواصلُ حديثي لفكّ عقدته:
- أنصحك بجلب أهلك من تيشكا لترى عروسك .

تنقشعُ دمعة كادت تفر من عينه:

- حالا أخي عبد الله، قد أسعدْتني. لن أنسى موقفك هذا أبدا.

- ألهذه الدرجة متمسك بها يا موسى؟

- متمسك بمصاهرتك يا عبد الله. وأتشرف بذلك.

أربّتُ على كتفه قائلا:

عدْ إلى غرفتك وتهيأ لمرافقتنا. سننتظرك في الحديقة.

متهدجا من النشوة يعقب:

-لا وقت لديّ. سامحني يا عبد الله سوف أسافر الليلة إلى البلدة. اشتقتُ إلى أمي.

- ألا ترغب في تناول العشاء معنا؟ إن نجاة من تقوم بتحضيره فلا تخذلها.

يصمتُ قليلا ثم يقول:

- أ اسمها نجاة؟

- ألا ترافقْنا؟

- بلى بلى. ومن هناك إلى بلدتي مباشرة. هيا اصعدا الحافلة.

كانتْ جانيت تتابعنا بصمتٍ، وأنا أستغلّ كل فجوةٍ في الحوار لترجمته لها.

كانت سعيدة جدا بذاك الإصرار وبتلك العادات. أبدتْ استغرابها في البداية، لكني شرحت لها أن أعرافنا تختلف عن ثقافتهم. وأن المرأة في محيطنا هذا

لا تختار ولا تُستشار عادة في الزواج، إلا من كان أبوها متعلّما أو فقيها. كانت تصغي وتستغرب.

البوابة رقم ٢٥

- هند أريد ان أسألك قبل لقاء أحمد وليلى.

تنظر بدون اكتراث إلى الناس حولها بعينين زائغتين، كأنها تبحث عن أحدٍ.

يستأنف د. رامي سؤاله دون مبالاة بشرودها:

قد قلتِ لي قبل قليل، إن المخدّر الذي تتعاطين يوجَد مع أحمد. لم أفهم ماذا تقصدين بذلك.

تفتح شفتيها للحديث ثم تطبِقهما. ثم بنبرةٍ متهالكة تردفُ:

- مع أحمد يعني هو منْ يتدخل في نسبة الكمية التي أحقن. لو كانت معي لحقنتها كلها وانتهيت من هذا البؤس اللئيم.

- ألهذه الدرجة أنت يائسة؟

- أكثر من تصوّرك. كرهت المال والعائلة والعالم.

- لماذا العائلة؟

- لأسباب خاصة.

- هل تخلت عنك مثلا؟

- في محنتي نعم.

يصمتان فترة، ثم يسألها:

- لكن ما دخل أحمد؟

- إنه يتاجر... ولا يتعاطى...

- في الممنوعات تقصدين؟
- في كل ما يدرُّ المال.. موروثاته يا دكتور هل تعلم مصادرها؟ لكنْ لا يهمني الآن فيمَ يتاجر. أنا في حاجة ماسّة إلى حقنة أو إلى نهايتي بليزْ...
ثم تغصُّ بالبكاء من جديد.
يسود الصمت. فيتناول هاتفه وهو يتنحى خارج مدارٍ صغيرٍ:
- ألو ليلى ها قد وصلنا إلى المدار الأول. كما في الخريطة. إلى أين أتوجه الآن؟.
- لا تبرح المكان. سألتحق بكما بعد دقائق. سأكون بمفردي. أخشى أن يتعقبني الشمالي فهو مختفٍ هنا في مكان ما.
- أفضِّل أن تدليني على اسم المصحة.
- مصحة الرحمة. هي غير بعيدة عن المدار الأول.
بعد ربع ساعةٍ كانت سيارة صغيرة بلونها الأحمر المغبرّ تقف أمام المصحة.
ليلى تتفحص السيارات القادمة بعينين يقظتين، تثبتهما على ال"كيا بيكانتو" وهي تتفرسها بحذرٍ، يترجّل منها رجل أنيق. يفتح الباب الأمامي، فتظهر شابة شاحبةً . تقول ليلى في نفسها: لا شك أنهما د. رامي وهند.
تلوّح لهما بيديها معا وهي تتلفّت حولها. تتقدم نحوهما بابتسامة مرتبكة قائلةً: لا شك أنكما الدكتور رامي والآنسة هند. أهلا وسهلا.

- وأنتِ الآنسة ليلى دون شكّ.. أهلا بكِ. أين أحمد؟

- حمدا لله على السلامة. تفضلا معي.

تسبقُهما إلى المدخل. ثم إلى حجرة أحمد. يحاكي سرعتها د. رامي. لم تستطع هند مواكبتهما. كانت تمشي الهُوَيْنى. تنظر حولها كأنها تبحث عن شيءٍ. تشاهد كرسيا في الردهة الأمامية للمدخل. تتوجه نحوه وهي تجر قدميها.. تجلس وتلقي برأسها إلى الخلف وهالات السواد تتفاقم حول عينيها و شفتيها. تتكورُ فوق الكرسيّ . وإذا بيد تربت عليها:

- هل ترغبين في مقابلة طبيبٍ، يا مدامْ؟

بالكاد تفتح عينيها، ترى بياضا يخاطبها بصوت ذكوريّ، ثم لم تعد تعي شيئاً.

ليلى تتقدم دائما والدكتور رامي يتبعها، يكاد يهرول وتنفسه يُسمَع. سلَكا ممرا طويلا، فسرْدابا معتما، قبل أن يلوح جناح الإنعاش أو ما يسَمّى بالعناية المركزة. وقفت ليلى وهي تلهث أمام إحدى تلك الغرف. تلصق وجهها بالزجاج وهي تقول: "ها هو".

وقف رامي بجانبها وعيناه تمسحان الغرفة. يحدث شيء غير متوَقَّعٍ. أحمد يدير وجهه هذه الأثناء نحو الزجاج. هاهو يتقاسم وشقيق روحه لحظة تماس مع الحياة من جديد. إنها لحظاتٌ رائعة. فرح ولوم ومصالحة..

ليلى تعدو مغتبطةً نحو غرفةٍ خاصة، على بابها لوحة باسم "د. وسام" . تعود برفقته وممرضٍ آخر نحو غرفة أحمد، يسابقهم د.

رامي إليه.
بابتسامة رسمية يلتفت إليه الممرض قائلا:
- سيدي، يمكنك الانتظار قليلا من فضلك..
-حاضر.
يتنحى د. رامي جانباً والطبيب الذي يجس نبض أحمد يقول:
"الحمد لله قد تجاوزتَ مرحلة الخطر" ثم يلتفت إلى الممرض، الذي يحمل في يده بعض الأوراق مستطردا:
"بإمكانه مغادرة غرفة الإنعاش الآن، حضروا له غرفة في جناح آخر إلى المساء". ثم يشير إلى ليلى قائلا: "الآن يمكنك أن ترتاحي مَدامْ".
كان أحمد يكتفي بابتسامة شاحبة، وهو يقلّب الطرْف بين رامي وليلى وعيناه تفيضان من الدمع.
يهمّ الطبيب بالانصراف، يرافقه رامي إلى خارج الغرفة وهو يردد ثناءه. يؤكد الطبيب أن أحمد سيظل في المستشفى إلى المساء. ومتى تستقرَّ حالته ينصرفْ. ثم يتحدثان قليلا في مجالهما. يتبادلان معلومات خاصة من أجل التواصل. ويتواعدان بالزيارة في المستقبل.
ليلى تظل بجوار أحمد، تهنئه وتدْعمه. فجأةً تسمع صوته الواهن يهمس:
-أين هند؟ لم أرها مع رامي.
كانت الحيرة تسربلُ نظراته الخافتة. وهو ينظر في وجهها.

- ستحضر بعد قليل، لا تشغل بالك.. د. رامي موجود مع طبيبك في الخارج. سأناديه.

عجِلة تنسلّ إلى الخارج.. تقترب من صديقهما، تهمس في أذنه بشيء ثم تهرول في الممرّ.يبدو الارتباك جليا على د.رامي وهو ينهي الدردشة بسرعة، عائدا إلى أحمد..

- أهلا يا حبيبي، الحمد لله على سلامتك .

ظل يصافحه ويشكر الله على لقائهما من جديد.

كان يتحدث وعيناه صوب الباب. وأحيانا يلقي كلاما مبهَما.

- هل أنت بخير يا رامي؟

تفاجئهما ممرضة تجلب مقعدا متنقلا إلى الغرفة. تطلب من د.رامي الانتظار بالخارج. بخفّةٍ تقوم بمساعدته على الاستقرار داخل المقعد. ثم تسحبه إلى المصعد الكهربائي.يتعقبهما رامي قبل أن يُقفل الباب سائلا:

- آنسة من فضلك، رقم الغرفة؟

- ١١٠...

منبهات ساعفة في الخارج تزعج سمعه.. يتلفّت حوله. لا يرى غيره في الجناح. شعور بالوحشة يساوره. يرسل بصره عبر نافذة قريبة، تُطِلُّ على الشارع الأماميّ للمستشفى. يشاهد مجموعة من رجال الوقاية المدنية بزيهم العسكريّ، يقلّون جريحاً إلى الداخل. يبدو من الضمادة المخضبة بالدم حول رأسه، أن الأمر يتعلق بحادثة. يستغلّ وجوده بعيدا عن أحمد ليتصل بهند. يحاول أكثر من مرة

دون إجابةٍ.
ثم في إحدى المحاولات ينفتح الخطّ . فيرد بسرعة : ألو هند إنتي فين؟
صوت خشنٌ يأتي متحشرجا كالمُحتضر: ألا تعرفني؟ أنا صديقكم الشمالي..هند في ضيافتي. ثم يغلقَ الخط.
- ألو..ألو..الو.. لا يسمع غير صوته. كان الخط قد انغلق.
أخذ يردد: "إنها كارثة أخرى تحلّ بنا من جديد. كيف غفلتُ عنها؟ لن أسامح نفسي إن تأزّم الوضع بسبب ذلك الحقير".
أخذ ينظر حوله متفحصا المكان. لا يعرف أين يسير ولا ماذا يقول لأحمد؟
"ليلى أين هي الأخرى؟" يتناول رقمها بيد مرتبكة. ينفتح الخط:
- يا ليلى تعالي حالاً من فضلك، أنا قرب مكتب الاستقبال.
- نعم حالاً.
يتذكّر السجائر، يتناول واحدة. يشفطها بإفراطٍ. منزعجةً تهرع ليلى إليه:
- ما الجديد؟ طمئني من فضلك.
- الجديد هو خروج أحمد من غرفة الإنعاش.
-وعن هند؟
- يبدو أنها وقعت في قبضة ذاك الشمالي.
- ماذا؟ كيف حصل ذلك؟
- اتصلتُ بهاتفها قبل قليل، فردَّ عليّ وأغلق الخطّ.

- ما العمل؟

- لا أدري.

- هل نخبر الشرطة؟

- لا أدري.

تدلف بسرعة إلى المصعد الكهربائي وهي تقول:

-الرقم كم من فضلك؟

- ١١٠

يبتلعهما المصعد وهما لا يعلمان أيّ طابقٍ. تأخذ ليلى المعلومة من إحدى عاملات النظافة.

يضغط الدكتور على رقم ثلاثة في الخانة المضيئة.

بعد ثوانٍ يتوقف المصعد. ينفتح الباب. كانت القاعة رقم مئة وعشرة،

أمام باب المصعد مباشرة . يتبادلان النظرات دون أن يتحدثا، فيسرعان بالدخول إلى الغرفة.ما زال في الغرفة طبيب وممرضتان. وقفا لدى الباب ينتظران الإذن بالدخول. تلتفت ليلى إليه وتسأله بصوتٍ مرتجفٍ:

- ماذا يحدث يا سيد رامي؟

- لا أدري.. أنا منذ البداية أجهل كثيرا من الأمور..

ترمق الرجل ذا الميدعة البيضاء والحذاء الرياضي. فتصرخ بهستيرية:

إنه هو.. إنه هو.. تجري خلفه. تمسكُ ذراعه بقوة وهي تصرخ:

- توقف أيها السفاح. أين هند؟

- ابتعدي أيتها المرأة من أنت؟

تتكهرب مكانها. ليس هو..

بادرت الطبيب بالاعتذار ثم انزوتْ تبكي.

يتفرسها الدكتور رامي مهمهماً: "ماذا تخفي هذه المرأة أيضا؟ ربما هي تداهن كي تُتمّ خطتها. لابدّ أن أعلم منها الآن".

يقترب منها بعدما تجاوزتْ هستيريتها، سائلا:

- من الرجل؟

- كنت أظنه الشمالي؟

- الشماليّ ليس طبيبا على ما أعتقد.

- أدري ولكنْ بالأمس كان يرتدي ميدعة بيضاء حين اكتشفت وجوده بالصدفة. وربما كان يدلي على صدره سماعة طبية، لم أعدْ أتذكر ذلك جيدا.

لكن كيف يقوم بالاختطاف والحجز داخل مصحة تعج بكاميرات المراقبة دون أن ينكشف؟

يطرِق لحظة ثم يستطرد: - لم أعد أفهم شيئا..

-هو خبير بالإجرام يا دكتور، وقد جاء ينفّذ أحد مخططاته على ما يبدو.

تمرُّ أمامهما ممرضةٌ، تدفع كرسيا متحركا، عليه إحدى المريضات في حالة إغماء.

تسرع بها إلى إحدى الغرف.. فوق ركبتَيِ المريضة بضعة أوراق..

تتبع ليلى العربةَ بنظرها إلى أن تدخل الممرضةُ غرفةً في آخر الممرّ.
كان الدكتور رامي، يتابع في خياله الشريط الدرامي، الذي يعيشه في رحلته الغريبة. كان مُطَأْطَأَ الرأس، ينكت الأرض بمقدمة حذائه.
تطل
الممرضة برأسها من باب الغرفة، مشيرة إلى د.رامي.
ينظر حوله ليتأكد أنه المعني. لا يوجد سواه في الممر. فيسرع إليها.
يسمعها تقول:
- من فضلك هل يمكنك مساعدتي؟
-تحت أمرك.
كانت ترغب في تمديد المريضة فوق أحد الأسِرّة. يمدّ يديه ليسندها. يتوقف وهو يردد: هند.. هند.. ترتطم الكلمات بسقف فمه.
- أتعرفها؟.
يحدّق في وجه هند طويلا وهو يسأل: من فضلك ماذا حدث لها؟
- دخلت قسم الطوارئ في حالة هستيريا غريبة. فأمر الطبيب المناوب بنقلها إلى هنا.
تشكره على مساعدته وهي تغادر مضيفةً: المعلومات في قسم الاستقبال.

البوابة رقم٢٦

دخل يتعثر إلى الغرفة التي يرقد فيها أحمد، كان هذا الأخير يحتسي شربة ساخنة،

وأمامه على المنضدة، صحن خضر مع لحم مسلوق و حبّتَيِ تفاح وبرقوق.

ليلى تجلس على كرسي بجواره. يطلب منها مشاركته الطعام. تعتذر ثم تنهض لاستقبال د. رامي الذي بدا متوترا. يجذبها من يدها إلى الخارج وهو يهمس: اتبعيني. توجها رأسا إلى غرفة هند. كانت ممدةً على ظهرها تغط في نوم عميقٍ ووجهها صوب السقف. يدها مربوطة بأنبوبٍ إلى مصل بجوارها. لا أحد في الغرفة إلا هي.

تنظر إليه ليلى مشدوهةً: ما الأمر؟ من أتى بها إلى هنا؟

-المعلومات في قسم الاستقبال. لابدّ أن في الأمر سرّا. هذا ما أوحت لي به الممرضة.

- كيف ذلك؟

- لا أدري.

- من فضلك عد إلى غرفة أحمد. لا أريده أن يعرف شيئا الآن.

- اطمئني أنا أحرَص منك على صحته.

- سأعود بعد قليل.

- احترسي.

تسرع إلى داخل المصعد الكهربائي. تضغط على زرٍّ ينزل بها إلى القسم الأرضي.

تقف أمام مكتب الاستقبال، تستفسر عن النزيلة هند، وعن موعد مغادرة أحمد.

تعطيها الموظفة بعض معلومات غير شافية عن هند، لكنها مقْنِعة. تشكرها وتعود مسرعة إلى الغرفة ١١٠.

- أين تغيبين يا ليلى؟

- كنت في الإدارة . أسأل عن موعد خروجك يا سي أحمد. الطبيب لم يأذن

بعد، ربما مساءً. أو صباح الغد إن شاء الله سنغادر.

- ألستما جائعيْن؟

يردُّ د. رامي:

بلى..وبعد إذنك آخذ معي ليلى لنتناول أي طعام ثم نعود بعد ذلك.

تنظر إليه ليلى داعمةً الفكرة.

- بكلّ تأكيد. أظنها لم تتناول شيئا. هي لم تبرحْني.

لم ينتظر منهما تعقيبا يستأنف طعامه. وقفا يشجّعانه على إتمام وجبته. تساعده ليلى على تقشير التفاحة. يكتفى بنصفها فقط و يومئ لرامي بالنصف الباقي.

يعتذر قائلا: خذ طعامك كاملا. التفاح مفيد لامتصاص السكري في الدم.

كان يحاول أن يبدو طبيعيا أمامه. أخذ يحدثه إلى أن داهمته

غفوة فتسحّب خارجا. تتناول ليلى البرقوقة وتنسلّ خلفه. متمنية الراحة للمريض الثاني الذي يتقاسم الغرفة مع أحمد. كان شابا يعاني من قرحة في معدته. تُناوله ليلى مجلةً كانت فوق المنضدة قبل خروجها. تدلف نحو الجيب، حيث د.رامي ينتظرها.

تجلس ليلى خلف المقود كالعادة.بسرعة يمتصهما الشارع الفسيح. يتوقفان أمام مطعم صغيرٍ. كان اقتراح رامي طاجينا باللحم. فيما طلبت ليلى طبقا من الدجاج المشوي والسلاطة. انتهيا من الطعام دون أن يتحدثا عن همومهما.

ثم اختارا مقهى أنيقا لارتشاف فنجانيْ قهوة، غير بعيد عن المصحة. يقول د.رامي:

- هذا المقهى أنسب، هكذا يمكننا مراقبة زوار المستشفى.

- أجلْ. أتوقّع أن يكون ذاك المجرم موجودا بالقرب.

- أتوقّع ذلك أيضا.

يا ليلى هناك أمر يحيرني . أريد منك إجابة صريحة من فضلك. من هو الشمالي؟ و منِ اقترحه على أحمد؟

- إحدى الشركات الأمنية الخاصة.

- إذنْ وضح الحلّ.. يلجأ أحمد إلى الشركة المسؤولة ويطلِعها على ما يقوم به مستخدمها من ابتزاز وتهديد.

- الشركة وهمية للأسف.. وهي شبكة كبيرة ومتشعبة في المغرب من ذوي رؤوس أموال ضخمة.

- لم أفهم.. كيف أنها شركة على أرض الواقع بوثائق ومستندات

ومستثمرين وتقولين عنها وهمية؟

- يا دكتور أنت ربما لست متابِعا للاقتصاد العالمي وأسراره. فهذه ليست حِكرا على بلد معين.. فقط تتفاوت النِّسب بتفاوت عدد من يتنصلون من الأداء الضريبي بالدرجة الأولى. ثم أصحاب غسيل الأموال من تجار المخدرات و السلاح و كل الممنوعات.

- قرأت عن هذا في إحدى المجلات الألمانية.. لكن تلك المؤسسات (المجهولة) تمارس نشاطها بصفة قانونية.

- وقد يكون لديها محامون ووكلاء يمثلونها في كل أرجاء العالم.

- علمتُ أنها لا تملك مقرات ،غير حسابات بنكية أو عناوين بريدية .. أما تلك التي تحكي عنها يا ليلى هانم، فهي لرجال عصابات ومافيا. هؤلاء خارجون عن القانون.

- يا سيدي هل في بلادنا العربية قانون يتعقّب شخصيات مرموقة ومشاهير؟

هناك عدة طرق للتمويه، في كل العالم وخاصة في الدول المستثمرة الكبرى.. ولإخفاء تحركات الأموال ، يتم غالبا تحويلها إلى هذه الشركات الوهمية، عبر عدة حسابات في بلدان مختلفة. ويصعب اكتشاف من يقف وراء هذه الشركات.

- أفهم من هذا أن أحمد في قبضة واحد من هؤلاء اللصوص؟

- ليس إلى هذه الدرجة. فذاك نصابٌ بائسٌ يريد أن يبتزّنا وكفى. ربما الجهة التي تشَغِّله، تستغله لصالحها مقابل بضعة آلاف درهم. لا يبلغه منها إلا اليسير.

- فهمتُ الآن ألغاز هند لما كنا في بداية تعارفنا في المطار. لازال أمامي سؤال آخر.

- ما هو؟

- من هي الآنسة ليلى؟

تتجهّم كالسماء التي على وشك أن تمطر، ثم تقول:

- وفيمَ يخصّك هذا السؤال؟ أظنه لا يعنيك يا دكتور.

كان ردها صارما، جعله يتحرك في مكانه متأهبا للنهوض:

- لا أبداً، هو مجرد محاولة لقراءة لوحة سريالية أبجدياتها غامضة.

- سأريحك يا دكتور. لا أعرف الشماليّ ولا الجهة التي كلفته بحراسة سي أحمد. أنا من وكالة خاصة بكراء السيارات. أشتغل سائقة خاصة لحسابها.

- عفوا يا افندم. مع شكر خاص على الدردشة.

يسود الصمتُ. تقطع حبلَه متسوّلةٌ غَثّة الوجه، رَثّة الملابس، تمدّ يدها لصدقة.

يتجاهلانها فتمرّ إلى طاولة أخرى.

ينفض الدكتور رامي سيجارته وهو ينادي على النادل.

في الطريق إلى السيارة يمتص آخرَ غمامة من سيجارته، ثم يرمي عقبها.

يبصق مرددا "غريب أمر هذا العالم".

يركبان الجيب عائديْن إلى المستشفى.

ظلت ليلى تحتفظ بصمتها حتى وهما يمرّان أمام سيارة هند القابعة في موقف خاص بالمستشفى. بل لم تعرها انتباهاً. يكسر سعال رامي الصمت، ثم يقول:

- لحظة من فضلك أريد النزول هنا.

يسرع إلى صندوق السيارة الحمراء يفتحه. يتفحصه جيدا. تظل ليلى تنتظره في سيارتها. تلاحظ انشغاله كأنه يبحث عن شيء. يغلق الصندوق ثم يفتح الأبواب.

تترجل من سيارتها وتدلف مسرعةً نحوه، تسأله: ما الأمر؟

- الحقيبة.

تُصدرُ شهقةً وهي تسأل:

- ماذا تعني؟

بصوت منهار يطَّرِد:

- سُرقت حقيبة أحمد السوداء. كانت هنا.

- هل فيها أشياؤه؟

- كلها...كلها...

- لندخل المستشفى، سأتحقق من أمر.

يسرعان إلى الردهة التي فيها الاستقبال. يقفان أمام إحدى الموظفات، تسألها ليلى:

- سيدتي من دفع مبلغ استشفاء الآنسة هند نزيلة الغرفة ١١٥ ؟ أنا قريبتها.

- لحظة من فضلك.

شرعت تتفحص مذكرة أمامها ثم قالت:
- نعم أتذكر الآن..إنه شخص لم يكشف عن اسمه. قال إنه يتبرع بمبلغٍ لفائدة قريبته.
- أريد أن أعرف كم دفع لأكمِل المبلغ؟
- عشرة آلاف درهم تحت الحساب. لأن علاجها سيطول بعض الشيء. عندها إدمان حادّ.
- ستهتمون بها الليلة فقط . نريد أخذها معنا للعلاج في مكان آخر. نحن مسافرون.
يتابع حوارهما رامي باهتمام شديد، فيطلب لقاء طبيبها المعالج. تمدّهما ببطاقةٍ عليها معلوماته. يشكرانها وينصرفان.
داخل المصعد الكهربائي يقول: إنه الشماليّ.
- أجل..إنه وراء كل المصائب. سنعرف من هند كل شيء عندما تفيق.
- يا إلهي كيف تمّ ذلك؟ إنها القاضية على أحمد. يا ربِّ سلِّم .
يتوقف المصعد، ينفتح الباب وهما يتحادثان. يدلفان نحو أحمد الذي بدا لهما من بعيد كأنه سئم رقدته .كان يحاول النهوض. يسرعان إليه. تمد ليلى يدها، ويسنده د.رامي على كتفه قائلا:
- يا أحمد أنت تعرف سبب تعب هند؟.
- لا لست أعلم.. ماذا حل بها؟
-لا تنزعج فقط أردت إخبارك بأنها تعرضت لأزمة صحية
- هل عُرِضت على طبيب؟

- يتهيأ لي ذلك
- أين هي الآن؟ إنها مختفية تماماً..
-عندها حالة إدمان حادة.. تخضع للعلاج الآن.
- لقد حذرتها مرارا من وخامة تلك العواقب
- يصمت الدكتور لحظة ثم يقول:
لا تجهد نفسك.الأمور تُحَل بتوقفها حالا واستجابتها للعلاج. هناك أمر آخر لا يستوجب التأجيل ولو أن
ظرفك الصحي لا يسمح لكن لابد أن تعرف لتتصرف قبل فوات الأوان.
سعال حاد يفاجئ أحمد، يمد يده المرتعشة إلى قنينة ماء على المنضدة أمام .يرشف
منها رشفة و يده الأخرى تشير الى "هات ما عندك أسرع
ينظر إليه د. رامي نظرة يعتريها التردد.
- أفصح يا رامي قد أفزعتني ما الأمر؟ صحتي لا تستحمل.
مترددا يقول في نفسه: "مش حقولك حاجة عن الحقيبة خلاص..غيرت رأيي". ثم يردف بصوت مسموع:
-لا تضخم الأمر يا صديقي واطمئن.. كنت أريد أن أخبرك أن هند ترقد في هذا المستشفى.
- هنا؟
- نعم، في نفس الجناح "د" بجوارك.. ليلى عندها الآن.
أخذ يتمايل فوق سريره. ينيخ الإزار عن جسمه ويمد رجليه إلى

الأرض. يضعهما في شبشب يدخل فيه نصف قدميْه ثم يخرج وهو يقول:

- أشعر بدوار شديد

- من طول الرقدة يا أحمد. فالضغط ينخفض بسرعة. لا تُجهد نفسك رجاء.

- في أية غرفة؟

- استند علي. إنها هناك في الحجرة رقم ١١٥.

أخذ يلقي قدميه الضعيفتين على الأرض، كمن يمشي في الماء، أو كطفل يمارس خطواته الأولى بحيطة وحذر.

- إلى أين؟

صوت رخيم مألوف. يلتفت.. إنها رجاء إحدى الممرضات التي تتناوب على مراقبة السكري لديه.

مبتسمةً، تسرع إليه تسنده من الجهة الثانية.

- الغرفة ١١٥ من فضلك.. فيها نزيلة هي قريبتي.

- الفتاة المدمنة. إن حالتها مستقرة الآن. دخلت المستشفى في حالة هستيريا فظيعة

- نعم نعم قد علمت ذلك. هل حالتها خطرة ؟

- الطب تطور يا أستاذ. نحن في القرن الواحد والعشرين. لا شيء يعجز الطب إلا الأجلُ فهو بيد الله.

يردّد رامي: تماما.

أصبح د.رامي منذ مصادفته هذه الأحداث صَموتا.لا يتكلم إلا لماما.

كانت الأحداث ككُبّة صوف تلعب بها قطّة. يتشابك أول الخيط بآخرِه.

يصل ليلى وقعُ خطوات في اتجاه الغرفة، فتهب للاطلاع:

-أهلا أهلا. على سلامتك آ سي أحمد

-أهلا.. خبّريني عن هند ما بها؟

- عندها هبوط في الضغط. هذا ما قيل لي.

أخذت هند تتحرك دون أن تفتح عينيها.. وعلى ظَهْر راحتها اليسرى بقعة زرقاء وبعض انتفاخ. منفزعا، يقلّب أحمد الطرْف بين رامي والممرضة وهو يسأل:

- ما سبب هذا الازرقاق؟.

يرد الدكتور رامي:

- هو ناتج عن ضغط حقنة المصل على جلد اليد. لا يشكل ذلك أي إزعاج صحي يا صديقي..

تردف الممرضة رجاءُ وهي تحرك رأسها مؤيِّدة:

لقد أزلناه حتى تعود يدها إلى حالتها الطبيعية. الأمر عاد جدا كما قال صديقك. ما من خطورة في ذلك إطلاقا.

يقول أحمد، ملتفتاً نحو رامي، وابتسامة أليفة تعفر وجهه:

- إنه أخصائي جراحة ورئيس قسم في مستشفى كبير جدا في كندا. وهو من سيشرف على علاجنا معا أنا والآنسة هند. أتمنى منكِ مساعدته لتخليص أوراق المغادرةِ الليلة.

- أهلا وسهلا يا دكتور، تشرفنا بمعرفتك.

مكتـفٍ بالتبسّـم دون تعقيـبٍ، يبـادل رامـي صـديقَه غمـزةً تقـول الكثير.

كان د. رامي يفكر في كيفية تبليغ صديقه عن سرقة ماله.

متبرمـا يـردد بصـوت خافـتٍ: "مـا أضـيق هـذه الغرفـة ! الهـواء فيهـا خانقٌ جدا".

ينظر إلى هند التي بدأت تفيق : "هاهي تفرك عينيها.

إنها تفتحهما بالتدريج".

الممرضة لم تغادر بعدُ الغرفة، يَصرِفها أحمد شاكراً، ثم يميل على هند،

يمسـح على جبينهـا ويقبّلـه. تهمـي دمعتـان على وجهـه، وهـو يـرى ضمور وجهها الشاحب.

يقـف صـديقه يراقـب تـأثره مـن غير أن يـتكلم. الحـديث لا يُجـدي أحيانا في مثل هذه المواقف.

الصمتُ يكون أبلغَ. مضمومةَ الساعدين، تقف ليلى صامتةً أيضا. المساء يُشرِف على الامتداد. الشمس تهيئ طقوس الوداع. بدأت في التنحي ليصل موكب الليل بعد سويعات. ريح باردة تحرّك ستار الشرفة. وذؤابات أوراق شجرة فارعة تتمايل خارج النافذة. تُسري قشعريرة على النفوس المُتعبة داخل الغرفة . يُخرج الدكتور رامي علبـة السـجائر مـن جيـب سـترته. وينزل إلى الحديقـة في الطـابق الأرضي. يتناول سيجارة وهو يتأمل المساء القادم بغموضه. يستند على جدع الشجرة الضخمة الفارعة وشفتاه

تتمـزّزان الـدخان وتنفثانـه حولـه. كـان منغمسـا في تأملـه الحـزين حين نكزَ شيءٌ كتفَه.

يلتفـتُ. إنهـا ليلى، الفتـاة الشـقراء الجميلـة وفي يـدها عـودُ وردة تشبهها.

في عينيها يجتمع الحسنُ الذي يزيده الانكسار جلاءً. كانت نظراتها تائهةً. يرفع د.رامي بصرهُ إليها ثم إلى السماء، وهو يمج ما تبقى من الـدخان بعيـدا، وبين تلـك الخيـوط الراحلـة تطل صـورة نفرتيتي.. يهمسُ:"جيتي في وقتك. على الأقل حاجة حلوة تردّ الروح". ساهمةً تجلـس قبالتـه على كرسيّ، تنظر إلى الفـراغ حولهـا، فجـأة، تُحـوّل وجههـا الجميـل إليـه، وسـاعداها مشـبوكان على صـدرها قائلـة:

- ألا تنتهي هذه الكوابيس المتتالية؟

- لا أدري يا ليلى. كنتُ أفكر كيف سأبلغه عن ضياع حقيبته. إني أخشى عليه من انتكاسة أخرى.

- أنا أيضا أخشى عليه من ذلك. فما الحلّ؟

- ننتظر حتى تطيـبَ هنـد وتخبره القصـة. هي تتحمّـل جـزءا ممـا حدث.

- لكنْ، ألا تظنّ أننا قد نكون مبالغين في تهويل الأمر.

- ماذا تعنين؟

- قـد تكون أشـياؤه الثمينة في مكان آمن.. لا أظنه بهذه السـذاجة. هو محترفٌ.

- محترف أو منحرف ما عادِتشي تِفرق.

- محترف في مجال عمله. التجارة طبعا. هذا قصدي.
يحرك رأسه بالإيجاب وهو يغمغم في نفسه: أنا اللي طلعت بينكم غبيّ..
وانتو المحترفين. ناس ملغومة.
شيءٌ ما يلمس قدم ليلى فتصرخ وهي تتقدم فزِعةً نحو رامي..
عقّبَ يهدئها: ربما فأرة جائعة تبحث عن طعام، أو فأر مسكين يبحث عن أنثى.
- أفرجت عن نصف ابتسامة وهي تطَّرِد:
- هو ينوي المغادرة الليلة.
- أشعر بدنوّ فكّ الرموز المبهمة.
- أتمنى ذلك لأعود إلى بيتي فقد تعبت جدا.
- كلنا نتوق إلى حضن البيت..
تتسربلُ الطبيعة فجأة بنُتَف الظلام. فتستأذنه للرجوع إلى غرفة هند. تصعد السلالم بسرعة وهي تلهث. كانت تعدو كأنها على بساطٍ مستوٍ. الوصول إلى الطابق الرابع عَدْوا أمرٌ مُرهِق. وكأنها تهرب من شي ء يطاردها. تصل إلى الجناح "د" يسابقها لِهاثها.

البوابة رقم ٢٧

في البيت، كانت أسرتي تستعدُّ لحدَثٍ سعيدٍ. فحين وصلنا، تسابقَ الأطفالُ، على غير العادةِ، إلى لقائنا. إخوتي الصغار من سبعِ سنوات إلى إحدى عشرة سنة..

ابتسمتُ وأنا أدركُ أن نجاة غذّت الخبر بطريقتها في مختبرها الخاص، بإضافة (حمض أميني وحمض البيوتريك) كوقود لجعله قابلا للامتصاص بسرعة، من طرف الجميع وخاصة أمي. أعلم أنها هيأت لي أرضية مُفاتَحتها في الأمر. لقد استوعبَتِ المعادلة جيدا.

هذه بتلك..أنا جناحها الأيمن إلى موسى، تعوّل عليّ في ذلك، حتى وإنْ لم تعلن عن رغبتها، فهي صارخة. لقد كانت أذكى مما توقعتُ.

"ها هو موسى يطرق بابك يا كبد أمّي، طالبا ودكِ، فاسعَدي وقرّي عينا".

الأرواح الطيبة تتجاذب وتتوافق فتندمج بسرعة. عريس ذو أخلاقٍ جميلة وعملٍ مستقلّ، هو مشتهى الفتيات في قريتنا الهادئة.

فما إنْ عُلِمَ خبر قدومنا، حتى ألفينا أمي تقف في الردهة الواسعة خلف الباب. تردد عبارات ترحيب أمازيغية. ووجهُها الجميل مخمّرٌ بشال، لا يظهر منه إلا عينها اليمنى، استحياءً من الضيف، خطيب ابنتها. لم يسبق أن تقابلا من قبلُ. كانت لقاءاتنا السابقة أنا وهو، في الغرفة البرانيّة (أعْريش)، التي يفصل بينها وبين المَرافقِ

الجوانيّةِ ، بابٌ عريضٌ خشبيٌّ. الليلةَ يدخل بيتَنا بصفة رسمية، إنه زوج أختي المقبِل. رائحة البخور في كلّ مكان. جانيت التي تعيش هذه الطقوس الجميلة، لأولِ مرّة تشعر بالدهشة.

كانت مفتونةً بما تشاهد وسعيدة جدا. كانت تبتسمُ طول الوقت. وعيناها تلمعان.

ندخل البيتَ باسم الله. هذا تقليدٌ عامٌّ في كل بيت صحراويّ أمازيغيّ، هنا في القرية، وفي كلّ مكان نحمل إليه ثقافتنا. فذِكر اسم الله عند عتبة البيت بصوتٍ مرتفعٍ، إعلان لمن في الداخل من النساء، عن حضور ضيوفٍ غرباء. حتى يتجنبن الظهور. وإذا وُجدتْ امرأة بين الضيوف، تستلمها الأكبر سِنا من نساء البيتِ، إلى قاعة الضيوف بالداخل. تجلس معها نساء البيت المتزوجات أو اللائي على أهبة الزواج. أما الأطفال فلا يُرونَ إلا نادرا. في حين يتوجه الرجال إلى صالةٍ فسيحةٍ، توجد عادة قرب الباب الكبير عند المدخل.

هذه المرة الوضع يختلف، لن نظل في أعريشْ، الغرفة الطينية المفضلة لدى موسى، بل سنتجاوزها إلى الداخل. فموسى لن يظل غريباً.

ونحن نلقي بخطونا فوق العتبة، تسمرتِ العيون المتلصصة عليه، أكثر من جانيت التي تعودوا حضورها معي. تجاوزنا الفناء الفسيح ،إلى إحدى الغرف المفروشة، بأبهى ما لدينا من زرابيّ ووسائد جميلة. كنا نسمع خرشفة التنورات الطويلة، التي لا يظهر إلا

تطريزها فاقع الزركشة، تحت الإنارة الضعيفة.
كانت نجاة وراء تلك العيون المحجوزة لالتقاط المَشاهد، ونقلها إليها بدقة متناهية. جلسنا بعد أن بالغ موسى في ترديد اسم اللهِ بصوتٍ مسموع. انتشرنا داخل الحجرة الفسيحة. رائحة الجير و البخور تمتزج في الجوّ. اقتعدتُ مكانا وسط الغرفة، جلستْ جانيت إلى جانبي وموسى في الزاوية المقابلة.
جانيت على غير عادة نسائنا، تُقاسمنا المجلس وفينا رجل غريب. ولكن ما يشفع لها في تلك القعدة معنا هو جهلها لغة أهلي. تعتمد عليّ في الترجمة. لكن بعد الآن الأمر سيختلف. اقتربتُ منها وأنا أهمس: "بعد قليل سآخذكِ إلى حيث أمي والبنات". أبدت سعادتها بذلك.
كانت ليلةً من أروع الليالي. اجتمعت فيها خطبتي على جانيت مع خِطبة موسى على أختي نجاة. التحقت بنا أمي وإخوتي الذكور دون البنات. قدَّموا صينية الشاي وأطباق اللوز والجوز والتمر و الكعكِ المجوّف المستدير. الذي تعرَف به مناطق آسفي ومراكش. وأيضا صحون العسل، السمن البلديّ و"أملو")طحينة اللوز وزيت الأركان المُحلّى بالعسل وهي خلطة للأكل خاصة بمناطق سوس)، مع أطباق الفطير البلدي اللذيذ. وبعد تجاذب أطراف الحديث. مع احتساء الشاي وتناول ما لذّ وطاب من حلويات، جاء موعد العشاء. مُدَّت موائد أخرى صغيرة.
وُضعتْ عليها ثلاث طواجن، من الدجاج البلدي بالبصل والزيتون،

وأخرى بالبيض المسلوق واللوز المقليّ، المصفف فوق قطع الدجاج. كانت جانيت منبهرة بما تشاهد. كانت أول من يمدّ يده إلى الأطباق. تتذوقها بمتعة. أما موسى فيكفيه النقر منها. يبدو خجِلاً جدا وسعيدا جدا.

بين فترات الصمت كنا نسمعُ كَعيصا قرب النافذة. مِلتُ على أخي عمر ذي الإحدى عشرة قائلا: كأن في الحجرة فئرانا.

مبتسما يردف: إنها فراخ عصافير معشِّشة خلف إطار النافذة الخشبيّ. أيقظتها رائحة الطعام. تسأل جانيت التي تستفهمُ مني: أحقا تريد أن تأكل؟.

ينفجر الطفلان ضحِكا ويرتميان خلف أمي. تلح عليَّ كي تراها وتطعمها، والكلّ يموت ضحكا.

كانت تضحك أيضا. يصحِبها عمر إلى الشرفة. كنا نسمع تعابير الدهشة، فنضحك. بعد العشاء يستأذن موسى ليزور أهله في تيشكا. أرافقه إلى الناقلة، يودعني وهو يبدي سعادته بالليلة المميزة.

- كيف كانت الطواجن يا موسى؟

- في ذروة اللذة والنكهة الطيبة.

- أختي نجاة مبهرة في الطبخ.

- بارك الله فيها.

- ترافقك السلامة.

يصعد الناقلة وهو يردد:كنشكرك بزاف أخويا عبد الله.الله يخلف.

- مرحبا أخويا. بالصحة.

أصفقُ الباب خلفي و أدخل. أنادي البنات ليلتحقن بِنا قائلا:

"اِظهرن يا عفريتات، أعرف أنكن تراقبن السكنات والحركات منذ ولوجنا البيت".

أسمع ضحكاتهن من وراء حُجُب. هاهنّ يتدافعن، تسبقهن ضِحْكاتهُن الجميلة.

يتبادلن التحية مع جانيت. يتحلّقْن حولها مرحِّبات. تتبادل نجاة و جانيت التهانئ. تحمرّ وجنتا نجاة وهي تشكرها. كنتُ المفتاح السحري بينهنّ. وبعد الانتهاء السريع من الأكلِ. تناولنا كل المواضيع، وعرجتُ على رغبتي في الزواج من جانيت. لم تتفاجأ أمي. لكنْ قالتْ:

إني أخشى أن تتركنا يا بنيّ.

- يا أمي أنا رجلٌ ناضجٌ فاطمئني.

ترد والدمع يملأ عينيها:

- يا ولدي أنت رجلُنا بعد وفاة والدك . أخشى أن تأخذك منا هذه الرومية بعيداً. فلمن ستتركنا بعد ذلك؟

-الله يرحمه آمين..

- الله يرحمه.

-اطمئني..يا "يْنّا" هي تحبكم وتحب أيضا بلدتنا. فأينما نرحلْ نعد إليكِ سريعاً. فلا تنزعجي أبدا.

أقتربُ منها أمسح دمعتها. أحتضن رأسها أقبّله. تعانقني وهي تبكي

وتعتذر قائلة:

مبروك يا ولدي هي دموع فرحتي بك وبأختك نجاة..

أربّتُ عليها وأنا أبتسمُ. تنفزع جانيت من دموع أمي. تقترب منها وهي تقول: ما بك إينّا؟(أمي بالأمازيغية).

تبتسم أمي وهي تردّ:

- لا عليكِ يا بنتي فقط أوصيكِ بولدي لا تبُعديه عني. واعتني به. فهو قرة عيني.

تتفحصني جانيت. فأتدخل لفك الرموز.

تُظهِر استعدادها للعيش بيننا وأنها تحب أسرتي كما تحبني. هذا ما ترجمته لهن.

من سعادة أمي تدوّي زغرودتها في أرجاء البيت.

لأول مرة تحضن أمي جانيت وتقبّلها. تقترب البنات مهنئات أيضا. كنّ سعيدات بهذه الخطوبة المخضرمة. في غمرة هذه المشاعر المتجاذبة نغفل عن نجاة وحَدثِها السعيد. نلتفتُ إليها، لم تكن في الحجرة. أنهضُ إلى المراح أناديها. كانت بالجوار تخفي ابتسامتها.. أسألها:

- لماذا لستِ في الداخل معنا؟

- لا أحد قال لي مبارك..

- تعالي يا "لَهْبيلَة". غدا حفلتك الكبرى، حين يأتي أخوالي وأعمامي مع نسائهم وبناتهم، سترين الاحتفال الحقيقي بك.

أمسكُ بيدها ونحن ندخل الحجرة. يقفن جميعا مهنّئات سعيدات

بخطوبة نجاة
أيضا. كانت ثلاث زغرودات من أمي، كافية لإشاعة خبر الخطوبة في الدوّار.
تفاجئني جانيت بطلبها: ما رأيك يا دولّي في قضاء الليلة هنا مع البنات؟
-دُولّي؟
- ييس بايْبي.. دُولّي وايْ نوتْ؟
أقهقه بصوتٍ كادت ترتج له أركان البيت..
كدتُ أختنق من الضحك. ناسيا طلبها.
تلِحّ ثانية:
ما رأيكَ؟
لم أخفِ سعادتي. كدتُ أحضنها:
- أحقا ترغبين في ذلك؟
مبتسمةً تحرك رأسها بالإيجاب.
قلتُ وأنا أضحكُ: جميلٌ، وهي فرصة تجعلك تحتكين بهن أكثر. حاولي تعلّم بعض الكلمات. سوف أكون قارئ فنجانٍ لفك الغيْب عند الحاجة.
تبتسم جانيت وتقبل خدّي أمام ضحكات و زعيق الجميع. تهرول البنات متفرقات.
أمي تضع يدها على فمها وعيناها تجحظان.
الأولاد كانوا يمُورون من الضحك، مستطعمين اللقطة. وكأنهم

يتفرجون على شريطٍ غراميّ.
بابتسامتها الخفِرة تنظر إلى الجميع، مندهشةً تردد: ماذا حدث؟.
أجيبها:
-القُبلة.
-القُبلة !؟
لم تفهم ما دخل القُبلة. مبتسمةً دائما تحدّق في الجميع.
- حبيبتي أنتِ قبلتِني على خدي قبل قليل. وهذه الأشياء تُعَدُّ في ثقافتنا من المحظورات.
تتسع حدقتاها وهي تعقّبُ: ألا تقبّلون بعضكم ؟.
- بلى ولكن ليس أمام الناس. أقصد ليس قبل الزواج. يعني أنت الآن لم تصيري بعدُ زوجتي.
- آه فهمتُ. ظننتكم لا تقبِّلون بالمرّة.
- لا لسنا من بني "حجَر". أضحكُ طويلا من هذا التعريف الغريب. وأضيفُ:
-نحن يا حبيبتي قمة في الرومانسية والعشق وسترين ذلك في حينه.
- متى حينه
- بعد كلمتين عند شاهِدَي عدْل. سيأتي "حينه" سريعا فأنا أكثر منك شوقا.
أغمزها فتضحك وهي تردّد: مجنون.
تلتفت إليهم معتذرةً، وابتسامة لذيذة تطفو على شفتيها الزُّهريتين.

آخذُها إلى غرفة جاهزة للضيوف. أطبعُ قبلةً طويلة على جبينها متمنيا لها أمسية
سعيدة. ثم أنادي على نجاة. وأطلب منها توضيب الغرفة لثلاثتهنّ. لأن الصغرى ستبيت مع أمي.
أدنو منهما قائلا: "I love you"
مكثت عندنا جانيت بعد ذلك ثلاثة أيام. تعرّفتْ خلالها على أهلنا الذين قدموا من تيشكا، وعلى أعمامي وأسرهم الذين في تنغير. كانتْ محطّ اهتمام وكرم الجميع، مما غمرَها بالسعادة.
في صباح اليوم الثالث، عادتْ إلى الفندق بهدايا كثيرة. كانت فترة الحجز قد أشرفت على الانتهاء. سألتها ونحن أمام باب الفندق:
- ماذا ستفعلين بعد انقضاء إقامتك في المغرب.
- سأمدّدها لشهر آخر كما اقترحتَ عليّ. هل يمكنك مرافقتي إلى سفارتنا بالرباط؟
- أكيد، سآخذ السيارة وننطلق فجراً إنْ شئتِ..
- لنسافر بعد غدٍ. أريد البقاء قليلا مع كارولين وكريستي.
- ادعيهما لتناول الغداء معنا في البيت.
-حقيقي؟
-سأعود صباح الغد لاصطحابكنّ..
في حضني مكثت طويلا هذه المرة، ثم انسلّتْ سعيدة إلى الداخل.
في طريقي عرجتُ على بستان لنا فيه بعض الكروم. وقفتُ بجانبه. ترجلت من السيارة وعدوتُ كطفلٍ أقطفُ العنب وأعصر حباته في

فمي.. شيءٌ بداخلي يصرُّ على خرق كل الأعراف. تلك التي قد تحول دون سعادتي..
قررتُ أن أستضيف خطيبتي وصديقتها هنا تحت هذه الكروم ونعصرَ عنباً..

البوابة رقم ٢٨

كانَ يوما رائعا في بستاننا الصغير..حيث تناولنا جميعا وجبة غداء ثريّ بمنتوجاتنا الطبيعية. رقصتِ البنات على إيقاعات "أحواشْ" المحلية .. ابتهجن كثيرا . ثم حان الوداع . لقد كان حارا جدا. تبادلن فيه أرقام هواتفهن الدولية وصورا للذكرى ، كما تبادلن الوعود باللقاء في السنة المقبلة. ثم عدتُ وجانيت إلى البيت. لقد تركَتِ الفندق نهائيا.

..

على الساعة الخامسة صباح اليوم التالي، كنتُ أمام غرفة البنات، أنقر نقرا خفيفا على الباب. تستجيب نجاة بسرعة قائلةً:

- الفطور جاهز يا أخي.

- الله يرضى عليكِ. أيقظي جانيت.

بعد ساعة كنا في السيارة. كانت أمي توصيني بالانتباه الشديد أثناء القيادة.

انتبهتُ إلى أن أخي عمر كان صاحيا. يقف خلف الباب بابتسامة لئيمة.

بعد عشر دقائق كان في المقعد الخلفيّ. تزداد ابتهالات أمي وهي تشير إليه بأن لا يتحرك كثيرا في السيارة. ضحكنا ونحن نودعها. أنزلتُ الزجاج وأنا أقول بصوت عال: أحبكِ يا أجمل النساء.

ننطلق باسم الله مجراها ومرساها. كأنها سفينة نوح تبحر في

المجهول. في طريق لا أدري إلى أين يأخذني. هي خطوة جريئة أقدمُ عليها. تركَتِ الكلّ في قريتنا يتحدث.

هناك من يُنكرها عليّ. وهناك من يغبطني سِرا. خصوصا الشباب الراني إلى الهجرة مع تطلعات حالمة.

أوصدُ أبواب التردد. وأتسلحُ بثقتي في قراري. لا يهمني أيّ رأي مخالف غير أمي التي تبدي اقتناعا غيرَ مقنعٍ.

كان عمر سعيدا بهذا السفر المفاجئ. فهو في عطلة مدرسية لمدة أسبوع . كنا نُشرِكه في الحديث معنا لكي لا يشعر بالإقصاء. كان محبورا جدا. كانت ضحكاتنا تتمازج و صياحنا المجنون كلما تجاوزتنا عربة. كان السفر ممتعا برفقتهما. وصلنا إلى العاصمة قُبيل الظهيرة. فتوجهنا رأسا إلى سوق باب الأحد لتناول الغداء. تجولنا في هذا السوق الجميل و اقتنينا بعض الهدايا. قادتنا أقدامنا إلى قلعة الأوداية و خمائلها البهيجة.

انبهرت جانيت بتاريخها المتمثل في معمارها ومتحفها العتيق. أخذنا صورا قرب معمل الزرابي المطل على نهر أبي رقراق، حيث تتكئ مدينة سلا ببياضها. ثم التحقنا بالسفارة الفنلندية التي تفتح بابها بعد الثانية زوالا إلى حدود الساعة السادسة..

أبديتُ لجانيت تخوّفي، مرة أخرى، من عرقلة مسعاها هنا بالسفارة، طمأنتني للمرة العاشرة مؤكّدةً بقولها: "أصدقاء بابا الدبلوماسيون كثرٌ في كل سفاراتنا في العالم، اطمئنّ".

تصفحت خريطتها الإلكترونية التي قادتنا بسرعة إلى عين المكان

بحي السويسي. لم يأخذ الأمر إلا ساعة زمنية حتى تمّ المبتغى. لكن تقلصت المدة المضافة من شهر إلى عشرين يوما. لا بأس. فهي كافية وزيادة لتحضير ملف الخطوبة ثم القِران. تبادلنا التهانئ. لم تقبّلني هذه المرة جانيت. مع أني رأيت القبلة عالقة في عينيها. اكتفينا بالشدِّ على الأيدي بحرارة ثم شددنا الرحال إلى ديارنا. عدنا ليلا منهَكين لكن مستمتعين جدا. دخلنا البيتَ فتوجهتْ جانيت مباشرة لأخذ حمام ساخن.

فقد كان كل شيء مُعَدّا كما أردتُ. كانت أختي نجاة وراء كل الترتيبات الجميلة في البيت. إنها ذكية جدا. كنتُ دائما أقول لها: "لو أتممتِ تعليمكِ، لنافستِ صاحبات الشواهد العليا على المناصب". كانت تردّ بحكمتها الجميلة: " أخي، أنا سعيدة بشهادتي الإعدادية، الأهم أني نلتها عن جدارة".. كنتُ أختمُ دائما بتنهيدة مردِفا: "للأسف أن يتعذّر وجود مؤسسة للتعليم الثانوي بالقرب منا، مما يُحجِم بناتنا عن إكمال تعليمهنّ"..

لكنها أبانت أيضا عن تفوّقها في النادي الاجتماعي للطرز والخياطة. كانت تصنع أشياء جميلة جدا بأناملها الرقيقة. وأجزِمُ أن دولابها الخاص مملوء بأروع ما صنعت يداها.

هكذا البنات في بلدتي يحضّرن"جهازهن"، في انتظار عريس محظوظ.

كانت رائحة العطور والبخور تعبق في بيتنا هذه الأيام. فمنذ وفاة أبي وجدتي لم نعش فرحة مماثلة. حتى الأعياد كانت روتينية باهتة.

علمتُ بعد هذه الأبخرة، أن أهل موسى قدموا لزيارتنا هذا المساء. وهم الآن في الصالة الكبيرة. أما موسى ووالده فخرجا في زيارةٍ للفندق. استغربتُ كيف يُقْدم موسى على هذا دون إخباري، غضبتُ فعلا ، وأسررتُها في نفسي حتى ألقاه. لكن عندما تناولت هاتفي لأحدثه، تفاجأت بأكثر من عشر مكالمات منه ، من والدتي ومن نجاة، فذهِلتُ. كنتُ مستغنيا عن هاتفي، ناسيا أن خلفي أسرة، يشغَلها الاطمئنان عني وعمن معي. شعرتُ بالذنب، إذ لا مبرر لفعلتي. كيف أتغاضى عن ذلك بالانشغال بجانيت وحدها. ها أنا أقرأ اللوم والانكسار في نظرات أمي، رغم اعتذاري الشديد. أفهم جُرمي وأتحمّل عواقبه. أعلم أن بوادر الغيرة بدأتْ، لا مناص منها. سوف أختلق سببا شافيا كي أتجاوز هذه الورطة. أمي طيبة، لن تخذلني.أمام باب غرفتها وقفتُ طويلا أحادث نفسي ثم أزمعتُ على أمر:

طرقتُ فدخلتُ وأنا أقول بفوضاي المعهودة: أنا الطارق..

كانت تبحث عن شي ء ما. التفتت إليّ. فما إن رأتني حتى تهنّأتْ وانشرح وجهها الصّبيح. جلستُ بجانبها ممسكا يديها معا أقبّلهما. ربتت على كتفي وهي تقول: لن أصالحك..

- يا أمي لا أحد يُنسيني إياكِ أبدا ولا يملأ قلبي غيركِ. لا شيء في الدنيا يوازنُ حبي لكِ..

- بلى..يوجدُ..

أخرجتُ هديةً من جيبي. كان سواراً من وَرِ قٍ أبيضَ بأحجار

كريمة.. اجتذلت حين تسلمتْه، فأنا أعلم عشقها للفضة. لا أدري هل سامحتني فعلا أم تظاهرت بذلك حبا لي .
عموماً كانت سعادتي قصوى بعدم رفضها الهدية. قبّلتُ رأسها وخرجتُ.
حينها كانت جانيت قد أنهت حمّامها. التحقتْ بها البناتُ جميعهنّ. كنّ سعيدات بهذا التحوّل الذي طرأ على البيتِ بقدومها. استغللتُ وجودهنّ فبعثتُ رسالةً إلكترونيّةً إليها أذكّرها بهداياهنّ.
لقد بدأن يفهمن بعض المفردات وصرن يعتمدن الإشارات والحركات المضحكة لتمرير الرسائل. كانت السعادة تغشى البيت كله.
إخوتي الصغار كانوا يتابعون مسلسلا بطلته جميلة بيضاء كالثلج. أقبلت بسحرها من وراء الشمس. وأنا، كنتُ أتعمّدُ تركها معهم، حتى يتخطّوا هذا الحاجز اللغوي، ويبتدعوا نمطا من أنماط التواصل. وقد أفلحوا في ذلك.
ذهبتُ إلى الفندق لجلبِ موسى ووالده. فالعشاء جاهزٌ. ما إ ن شغّلتُ محرك سيارتي حتى رن هاتفي..
- ألوو
- ألو يا موسى، هل أنتما في الفندق؟.
- نحن على مقربة من البيت..
- إني قادمٌ لأخذكما انتظراني.
انطلقتُ في الطريق الوحيد المؤدي إلى الفندق. شغَّلتُ أضواء

السيارة الأمامية

لرؤية تصل إلى ١٠٠ متر. شخصان يقفان قريباً. تزعج بصرهما الإنارة القوية. فأخفضُ الضوء قائلا: مرحبا. يفتح موسى الباب الأمامي لوالده. ثم يجلس في الخلف وهما يردّان على ترحيبي. كان التعارف سلسا جدا. أهل أمي من أعيان بلدتهم. ولهم سمعة طيبة تسابق الريح. وهذا الأمر اختزل المسافات بيننا. فكان حديث والده الحاج إبراهيم طول الطريق، مديحا وتزلفا، كنتُ أمقت ذلك في نفسي، لكني أجاملُ بهزّ رأسي أحيانا.

مرت تلك الليلة بكل تكلُّفها جميلةً ومميزة. الأجمل فيها اقتران خطبتين في آن واحد.

أمام بعض الأهل من تيشكا وتنغير.. أبديتُ عجلتي في تسريع وتيرة الإعداد لعقد القِران.. فكان الاتفاق بالإجماع بالمباركة والتهانئ.

قرؤوا الفاتحة والأدعية.. ثم انصرف الجميع إلى حالهم منشرحين.. وبعد أقلِّ من أسبوعين تحدث الأهالي عن حفل بهيج، كانت بطلتاه رومية بالزي المحلّي التقليديّ.. وعروساً أخرى انطلقت إلى تيشكا للاحتفال بزفاف كبير ينتظرها هناك.

وفي صبيحة اليوم السابع، أقلعت طائرة من مطار النواصر إلى هلنسكي ، أودعتهُا عروسي الجميلة، على وَعدِ إكمال ملف الهجرة للحاق بها قريبا جدا. ثم عدتُ برفقة

موسى إلى حيث أعمال كثيرة في الأفق تنتظرنا مع وفد سينمائيّ آخر..

في طريق عودتنا استوقفتنا دورية أمن عند إحدى نقط المرور، طلب الشرطي أوراق سيارتي. سلمته إياها، فتفحصها ثم ابتسم قائلا: يخلق من الشبه أربعين. نبحث عن واحد يشبهك. غمغمتُ: يا ربّي السلامة. أخذتُ الأوراق وغادرنا.. كانت العودةُ مملة، رغم محاولات موسى لإخراجي من صمتي.

وصلت الهاتف بالشاحن، حتى أتجنب الوقوع في مشكلة أخرى مع أمّي. فوصلني إشعارٌ برسالة صوتية من جانيت. بعثتْ بها قبل أن تطير. تنحيت بالسيارة جانبا ثمّ فتحتُها، فتناثر صوتها رخيما كمعزوفة للقمر:"أحبكَ و أشتاق إليكَ. لا تتأخر يا دُولِي". أتبعتْها ضحكتها الجميلة. تنهدتُ عميقا وأنا أردُّ عبر الهواء: "وأنا أيضا لا أطيق بُعدك يا جَنَّتي". تأملتُ موسى الذي يتابع في صمت، ورأسه منحنٍ كأنه غير مبالٍ، ثم قلتُ:

- أنت محظوظ بعروسك ابنة البلد يا موسى. أما أنا فإني أقامر بأشياء ثمينة جداً، قد أخسرها في لحظة.

- لا شيء يدعو إلى القلق. فإذا فقدتَ سكينتك فالحلّ بين يديك.

- بقدر ما أشعر بالخوف على زواجي بقدر ما أشعر بالخوف منه.

- كما قلتُ لك الحلّ بيدك.لا شيء يجبرك على السفر.

- صدقتَ. لكني لن أبتعد طويلاً. فوجه أمي ينعش روحي وهواء بلدتي.

- أنا أيضا أمي وزوجتي يملآن قلبي.

- لا تذكرني يا صديقي. فالبيت من غير نجاة موحشٌ.

يبتسم موسى نشوانا بما سمع، من غير أن يعقِّب.

....

تتعاقب الأيام بعد ذلك وئيدةً. لاشيء يستطيع اجتثاث الصمت الذي خلّفه غياب نجاة عن البيت. كانت هي محركه ومحوره النشيط. كانتْ مؤنسة أمي وإخوتي. أما صمتي فكان أعظم.

كانت تتوافد عليّ مكالمات جانيت ورسائلها فتزيدني اضطرابا. كم تمنيتُ لو محَتني من ذاكرتها. كم وجِلتُ من تلك الهجرة و كم عزّ علي فراق أمي و بلدتي. كنتُ أردد معانداً "أُثْبت يا عبد الله ما هذا الذي يلمّ بك؟ أنت رجلٌ يا صاح. وزوجتك أقدمتْ بشجاعة على ما لم تستطعه أنت الآن. هي لم تتردد لحظة واحدة. فلا تكن جبانا".

مكابراً أرد على هذا الضمير الموخِز: "لن أخذلها. فلستُ جبانا. لكنني خذولٌ وقِحٌ حين أقامر بأمي وإخوتي ".

الرسائل تفد بانتظام، تخبرني بتقدُّم تحضير أوراق تأشيرة السفر. لم يبق إلا أيام وأكون معها. سأترك هذا الوطن العزيز.

لا أدري لمَ كل هذا الهمّ الذي يركبني؟ ألم أكن أنا صاحب الاقتراح؟ كانت ترغب في المكوث معي نهائيا والاستقرار في ورزازات.. وأنا من ألَّبتها على السفر لبعض الوقت للتعرف على بلدها. فما سبب هذا القلب الذي حدث لي؟ ربما كان الداعي الذي تبنَّيته عندئذٍ، مواربا. وهذه هي الحقيقة. كانت لي مطامح بعيدة جدا من وراء هذا السفر. صوت آخر كان يصدح في داخلي مرددا:"إنها

فرصتك للتغيير". وصوت آخر أكثر مخاتلَةً يردف:"من أجل أسرتك أيضا وبلدتك". خداعٌ آخر، وكأني سأسافر إلى مناجم الذهب والماس.هكذا زينتْ لي أهوائي هذا الزواج وهذا السفر. قد أعود سريعا كما وعدتُ أمي. وقد لا أعود بالمرّة. لا أدري.. شيء ما يثَبّت الخيار الثاني في خيالي. وكأنه يهددني.

فأتقاعس لحظات إلى أن يُفْجَعَ صمتي باتصال منها أو رسالةٍ، فأمتثلُ دون تردّد.

في الصباح الثلاثين منْ تاريخِ سفرها، أيقظني اتصالٌ منها في وقتٍ مبكّرٍ جدا:

- ألوو جانيت.

- هاي حبيبي انتهى التعب. تكلل كل شيء بنجاح . تدخّل والدي لإتمام تجهيز أوراق قدومك. لقد بعثت لك تأشيرة الدخول إلى فنلندا. ستجدها في رسالة إلكترونية في بريدك.

-....

- عبد الله.. لماذا لا تردّ؟

كان الخطّ مفتوحا حين تركتُ الهاتف يقع من يدي لأعود إلى وسادتي.

شبكت يدَيّ تحت رأسي. وأخذتُ أحملقُ في السقف. سرحتُ بعيدا. امتزجت الرغبة بالرهبة. لم أعد أميز هل أفرح وأطيع عقلي أم أجزع وأوافق قلبي؟.

فتحت دفاتري القديمة، وأنا أجوب بعينيَّ السقف. يداي

المشبوكتان تحت رأسي
تضغطان بقوة على قفاي. رأيتُ معاناة أمي بعد وفاة والدي. رأيت أبي قبل ذلك يتهندمُ قبل خروجه إلى وظيفته "المخزنية"، بنفس الطقم الأزرق، الذي يكاد يغيب في لونه الغامق. حتى بليَ وتهدلت خيوط رقبته. باسم النزاهة والوفاء لأبناء بلدته. لا للارتشاء. فقضاء مصالح الناس عند أبي بالمجان، وعند موظّفيهِ بتسعيرة معروفة. كل زملائه أصبحوا رؤساء مصالح إلا هو ظل مرؤوسا إلى يوم وفاته. لا يحب التملق لأحد. هذا شعاره في الحياة. سيارته المهترئة بيعت في سوق الخردة بأبخس الأثمُن.
رأيتُ أمّي وأخواتي يرفلن في نفس التنانير أيام الأعياد والمناسبات لا بديل عنها..
تذكرتُ مكالمة جانيت والخبر الجميل الذي تضمنها. فجثوتُ على ركبتيَّ فوق السرير. حضنتُ الهاتف والرسالة بقلبي. قبلتهما ونهضتُ بهمّة جادّا. سأسافرُ في نهاية الأسبوع. هذا قرار لا عِوَج عنه.
فكرتُ في أمر سيارتي. سوف أدعها لدى موسى يستعملها في غيابي. وقد أبيعها له وأعطي ثمنها لأمي تدبّر به أمور الأسرة في هذه الفترة. هذا حل مؤقت الآن. سيارتي جديدة وذات قيمة لا بأس بها.
أول شيء بادرتُ بمهاتفة جانيت والاعتذار عن انقطاع الحديث. أخبرتها بموعد سفري. كانت في ذروة سعادتها. وكنتُ في قمة هواجسي.

بعد أسبوع كانت نجاة في بيتنا مع زوجها لتوديعي. ليس من عاداتنا زيارة العروس بيت ذويها بهذه العجلة. لكنه استثناءٌ، إذْ غدا حضورها ضروريا لمؤازرة أمي تلك الليلة. تركتُ البيت ينتحبُ وهرولتُ إلى السيارة. كانتْ دموعي تتقاذف فوق وجهي.

لم يكن توديعهم هيّنا. تركتُ أمي وحيدةً، وإخوتي بلا معيل لهم بعدي. وعدتهم بأن أبعث لهم كل آخر شهر نفقةً تكفيهم. وكان الأمر كذلك في البداية، لم أتوان عما وعدتهم به سنين طويلة. كنتُ أتتبع أخبارهم أولا بأول. وكانت عودتي الأولى بعد سنة فقط من سفري.ثم تلتها أخرى بعد سنتين، والثالثة لم تتحقق في الموعد. طال أمدها سنين طويلة. خسرت فيها أشياء كثيرة. وحققتُ فيها أشياء كثيرة. وقفتْ جانيت إلى جانبي منافحة أمام والدها أول الأمر. ووقفتُ بجانبها بعد وفاته في آخر الأمر. كان هذا الْ(آخِر أمر) نهاية عهد جانيت بأبيها، و بداية لي في عالمه. عالم المال والأعمال.

وفي ليلة من ليالي الشتاء الطويلة، دخلتْ جانيت باكيةً إلى مكتب والدها، حيث كنتُ أجلس، بعد وفاته بشهر تقريبا، أقلب مع المحامي في بعض الأوراق.

هرعتُ إليها معزّيا بدفقة حبّ:

- حبيبتي هوني عليكِ، فقد عوّضك الله بي أليس كذلك؟

- بلى لكنه أبي. لا يمكن أن أنساه وقد كان هذا مكانه المفضل، نادرا ما كان يبرحه.

- ألا تريدين أن أجلس مكانه؟
- بلى فأنت وريثه أيضا وكل أموالي هي أموالك.
حضنتُها ثمّ أجلستها بجانبي.
تم توقيع بعض الأوراق. في البدء كنت مبهورا بما خلف من أسهم في البنوك ورؤوس أموال لا تُعَدّ.. كانت جانيت وريثته الوحيدة وطبعا أنا زوجها المستفيد الوحيد. والوصي على أموالها.
اكتشفتُ فيما بعد، في أحد الاجتماعات مع رؤساء شركات كبرى، أن صهري كان ذا نفوذ قوي في أسواق المال العالمية. كان جده يهوديا من أكبر تجار الذهب في أسواق أوروبا وآسيا الوسطى. فهالتني كل هذه الاستثمارات الضخمة وتلك السمعة المدوية. وتعرفت على عائلات من الطبقات الأرستقراطية والحاكمة. فركبني غرورٌ سامٌّ. نسيتُ فقري. بلدتي وانتمائي. ونسيت جدها "اليهودي". وأن أبنائي منها ستكون لهم تلك الرائحة العطِنة.
أغمضتُ نصفَ عقلي واستجبتُ لحياةٍ جديدةٍ، تفتح لي أبوابها بالطول وبالعرض قائلةً بمكرٍ: "إني لك ، لِجْني من أنّى شئتَ".
فهمتُ حينها كيف تعايشتْ جانيت معنا في بلدتنا الفقيرة. إنها الرغبة في التغيير. واكتشاف ماتعٌ أقبلتْ عليه بكل شغفها بالمغامرة وفلتاتها. تماما كما حدث لي الآن. هي تنزلُ لتتذوق فقرنا الغريب وتعْجَبَ به. وأنا أصعد إلى غناها الفاحش وأُغرَم به. كل واحد منا يستمتع بطريقة تقبّله للآخر. الحبُّ يصنع الخوارق. هذا عالَمٌ غريبٌ بالنسبة لي. مهولٌ جدا. في البداية خسرنا الكثير من

الأسهم لعدم خبرتي. لكني تعمقت في الكسب حين قبلتُ التحدي. فكسبنا الكثير أيضا. صرت ضليعا في المال كأي رجل أعمال ناجح. وصار لي اسم في الأسواق بجانب اسم حمايَ. لم أغيره احتراما لزوجتي ولكنِ انتقيتُ اسما جديدا لتوقيعاتي إلى جانب اسمها العائلي، فصرتُ معروفا بِ (أحمد كوفين). ومع مرور السنين، صار الكل يناديني به، حتى كدت أنسى اسمي الحقيقي. قالت لي جانيت مرة معاتبة:" أشعر أني مع رجل غريبٍ.. ليس عبد الله الذي هربْت إلى بساطته. لقد صرتَ رجلا آخر. أحمد المتعطش للكسب فقط. دون اعتبار للمشاعر الجميلة".

كانت كلماتها تلك كالمطرقة على رأسي، أفاقني لحظاتٍ من هوَسي. كانت تزاول عملها في مجموعة من الصيدليات في أحياء متعددة. شغّلت نخبة من الصيادلة ذوي الخبرات في مجموعتها. كانت تحقق طموحها الجميل بنجاح، في زاوية أخرى، بعيدا عن هَوَس الأعمال والاجتماعات والأسفار المرهِقة.

كانت تحاول جذبي إلى الاهتمام بها. وفي ليلة رومانسيةٍ حميميةٍ، فاتحتها في أمر الإنجاب، فرفضت بشدّة. كان تأجيلها غير مبرَّر. بدأتْ تراوغ في الإقناع.

لم أكن جادا أنا أيضا لكني صممتُ على رأيي:

أتدرين كم مر على زواجنا يا حبيبتي؟

- عشر سنوات. أعلمُ ذلك يا حبيبي، لكني سعيدة هكذا، أنت طفلي المدلل.

عانقتني وابتسمتْ، وفي عينيْها حزن لم أفهم دواعيه.
- كما تريدين. لن أغصبك. فقط اعلمي أني أحب الأطفال.
تبرمت وغيرت الموضوع ككلّ مرة، ثم قالتْ: ما رأيك في التبني؟
أزعجتني الفكرة، قطبتُ معقبا: التبني لليائسين من الإنجاب. لكنْ ما سبب عزوفك أنتِ؟.
ردّت بصوت كسير: وأنا لن أخلف طفلا يتيماً.
- ماذا تقصدين؟
مططت شفتيها وهي تقول: لا شيء. لا تهتمّ.
أقسمْتُ أن أعرف منها ما تخفيه عني.
طوّقتْ يدي بيديها. حوّلت عينيها نحو سقف الغرفة. صمتت قليلا ثم قالتْ:
"ماتت جدتي ثم أمي والآن أبي. قد ألحق بهم في أي وقت. فلن أترك ابني يتيما بعدي".
هبت عاصفة مفاجئة، أطفأتِ الشموع فوق الطاولة. انقلبت قنينة المشروب. ففاحت رائحة النبيذ القوية.
جذبتها نحوي وأنا أهدئ من يأسها. وضعتْ رأسها على صدري. كانت عيناها تنزان الدمع في هدوء. إلى أن نامتْ.
ظلّت تلك النبرة البائسة التي تكلمتْ بها تتكُّ مشاعري، فأتحسّرُ.
ذات سفرِ عملٍ، أُجبِرتُ خلاله على البقاء خارج البيت يومين متتاليين، رنّ هاتفي الخلويّ، فتحتُ على صوت الحارس الأمني للفيلا يقول:

-ألو سيد أحمد

-ألو عجّلْ. ماذا لديك؟

- السيدة جانيتْ يا سيدي.

- ما بها؟ تكلّمْ..

- تعرضتْ لحادثٍ.

-حادث؟ !

لم أنتظرْ حتي ينهيَ حديثه. كأني أحفظ تفاصيل الحادث. تماما كما كانت تحكي لي عن أسرتها. فُجعتُ فأغلقتُ الخط بسرعةٍ. اعتذرتُ عن بقية الأعمال وطرتُ عائداً إلى البيت.

كان بعض الصحافيين مع رجال الأمن في الداخل، حين قال لي أحدهم دون مقدماتٍ:

_تبدو أنها حالة انتحار

صرختُ فيهم: كيف تقولون ذلك؟ لا يمكن...

- يا سيدي، اِهدأْ من فضلك، نحتاج منك بعض المعلومات. كنت أصرخ بأعلى صوتي. ولما هدأتُ، طلب مني المخبِر إحضار محامٍ.

لمستُ نبرة تشكيك في كلامه، وكأنه يلمّح باتهامي.

جانيت ممدة فوق السجاد، خدها الأيمن يغرق في بقعة دمٍ. ثقب في رأسها بمحاذاة أذنها اليمنى. الرصاصة المستقرّة في رأسها تبدو من مسدسٍ بجوارها.

أثبتت الشرطة العلمية بصماتها عليه. وأكدوا لي أن المسدّس

مرخَّص باسم والدها.
-لا يمكنها فعل ذلك. هي تحب الحياة. ولا شيء يجبرها على الانتحار.. كانت سعيدة معي..
- لا تهتم يا سيدي نحن نتحرى ذلك. أين كنتَ ليلة الحادث، فالضحية توفيت بالأمس.؟
كنت في السويد من يومين. كان سفر عملٍ. وها هو ذا جوازي.
أخذه المخبِر وصوّر تاريخ الولوج والخروج والتوقيت. أعاد الجواز لي شاكراً. ثم استدعى الحارس الأمني و حقق معه. ثم نقلوا الجثة إلى المدفن. وسُجّلَت حالة انتحار تكلمتْ عنها الصحف والمجلات. تناقلها الإعلام السمعي والبصري، وعصفتْ بي في قعر الحيرة والعذاب.. عشتُ في كابوس من الهلع عدة شهور. لم يستطع أحد إخراجي من عزلتي، ولا من اكتئابي. كسد نشاطي وخسرت في البورصة مجموعة من الأسهم. لم أعد أحفل بشيء ولا أبحث عن نجاح في غياب جانيت. كرهت البيت وكل فنلندا. أدركتُ حجم ذنبي وجسامة جرمي.. أدركتُ أنه ربما بانشغالي عنها قتلتْ نفسها. وأدركتُ إذْ لا ينفع الإدراكُ، أني كنتُ روحا تسكنها، تشردتْ بعد رحيلها.
و في أحد الأصْباح بعد تفكير مضنٍ، أخبرتُ المحامين برغبتي في بيع البيت، والصيدليات وكل العقارات التي هنا في سافولينا.
تمّ كل شيء بسرعة. كانت المبالغ ضخمة. فقررتُ نقل مشارعي إلى بلد آخر. أردتُ الهروب من موطن الوجع، حاملا معي جرحي. اقترح

علي بعض الأصدقاء دولة كندا. درستُ الاقتراح فوافقت فوراً. انتقلت إلى كندا، بعد سنة واحدة عن فاجعة زوجتي، في سنة ٢٠٠٧ م. وعمري كان قد تجاوز الثلاثين بأربع سنوات...

البوابة رقم ٣٠ :

وقفتْ ليلى تستريح قليلا، قبل دخولها إلى الحجرة التي ترقد فيها هند. يتناهى إليها
حديث غريب بين هند وأحمد. تتسمّر قرب الباب تصيخ السمع:
- يا هند، حاولي أن تتغلبي على هذا الإدمان الرهيب. أنا لا أرغب في تزويدك
منه. من الأفْيَد لك أن تتعالجي. وسأفاجئكِ بهدية جميلة.
- هل تسخر مني يا أحمد؟. أنا في ورطة حقيقية وأنت تتحدث ببرودك الذي يؤذيني.
-ماذا تقصدين ببرودي الذي يؤذيك؟ هل تعين ما تقولين؟ .
- حقنة أخيرة ولن أطلب المزيد. وإن فعلتُ بعدها بلِّغ عني.
- هل أنت مجنونة؟ لا أستطيع. فقد تخلصتُ من كل تلك السموم. قد أحرقتُها.
- قلت لك هات حقنة واحدة فقط وإلا سأموت.
صوت عربة ووقْع أقدام يقترب. تلتفت ليلى خلفها. إنها رجاء وممرضة
أخرى تدفعان عربة إلى غرفة هند. تدخلُ معهما إلى الحجرة في ذات الآن. تنظر هند إليهن بعينين متوسلتيْن. تناولها رجاء وجبة العشاء. وتطلبت من أحمد الالتحاق بسريره ليتناول حصته من

الطعام. وأيضا لتقيس نسبة السكر في دمه.
يخرج برفقة ليلى شاردا، يلقي بخطوهِ المتعَب على الأرض. يلتفت إلى هند. يهمس لها بنية المغادرة الليلةَ. ثم ينصرف إلى سريره.
نظراتها المنكسرة لم تتفاعلْ مع ما سمعتْ من أحمد. كانت منفصلة عما حولها. تحقنها الممرضة رجاء ببعض المضادات الحيوية. تناولها قرصا بعد الحقنةِ لتستكين قليلا. قائلةً : "ستكونين بخير". ثم بخطى رشيقةٍ، تدفع عربتها خارج الغرفة.
تشعر هند ببعض التحسن بعد تلك الحقنة. فتنهض من فراشها. تحاول المشي قليلا مستندةً على الحائط.
تجلس على كرسي أمام إحدى الغرف المنزوية. الإنارة خافتة جدا. قطة سوداء تجر بطنها المكوّر . تتأملها قائلة:
"حتى القطط تمارس أمومتها بكل حبّ".. ظلت تراقبها، إلى أن اخترقت أذنيْها وشوشةٌ بالقرب. كان حديثا عابرا لامرأةٍ على الهاتف. فهمّت بمتابعة سيرها، لولا أن صورة تلك المرأة أخذتْ تخلخلُ ذاكرتها المرهقَة، فرددت في نفسها:"أين سبق لي رؤيتها ؟".
لم تحتمل التفكير طويلا، ولا استرجاع فصول سبق تسجيلها غير بعيد، في الذاكرة. فانشغلت مرة أخرى بالقطة التي تموء مواءا غريباً. المرأة ما انفكّتْ تتحدث. بدأ صوتها يصل بوضوحٍ إلى هند، فيلفت سمعَها اسم الشماليّ. يتوقف تفكيرها عند هذا الاسم. فتتنصت بكل حواسها:
- أَ لم يصل بعد ذلك الشخص المدعو عليّ ؟

....-

- جميل، إذن الشانطة فارغة. أين أخفى تلك الأشياء؟

....-

-الليلة سنغادر المصحة.

....-

- أوكِ مع السلامةmon chef .

تردد في نفسها:" إنها ليلى. الآن تذكرتُها. يجب أن أخبر أحمد بما سمعتُ. وأهم ما في الأمر أن الشماليّ في قبضة هؤلاء. سأنتظر قليلا. إنها تتوجه

إلى الغرفة ١١٠.. ".

لم تستند هذه المرة على الحائط وهي تتحرّك نحو أحمد. يتفاجآن معاً عند رؤيتها. تبادرها ليلى بالتحية والتشجيع. كان أحمد أشدُّ ابتهاجا. يتنفس الصعداء قائلا :

-خيرا فعلتِ بمجيئكِ.

تلتفتُ إلى ليلى قائلة :

- من فضلك يا مدام، هل يمكنك جلب أشيائي من الغرفة؟.

كرهت العودة إليها.

- حالا..

أسرعتْ هند برواية ما سمعتْ. كان الخبر صادما. لكن سرعان ما انتبها إليها قادمة، فتعاملا كأنْ لم يسمعا شيئا. بادرتها

هند بالشكر، ثم همّواْ بمغادرة الغرفة.

"أين رامي؟".
منزعجا، يطلب أحمد من ليلى الاتصال به على الهاتف.
تركَّب رقمه، يرن طويلاً ثم يفتح الخطّ :
-ألو يا دكتور أين أنت ؟
- نمت قليلا في إحدى الغرف الفارغة. لقد متُّ من الإرهاق..
تضحك قائلةً: خيرا فعلتَ..
يتناول أحمد الهاتف ليطلب منه الإسراع في تحضير أوراق المغادرة. ثم من ليلى مساعدتَه في تغيير ملابسه. تحضّرها له فوق السرير
وتخرج. تتبعها هند أيضا. لم يطل الانتظار حتى كان بينهما.
يتوجه الجميع إلى المصعد الكهربائي.
في الطابق الأرضي أمام إدارة المستشفى يقف د.رامي و في يده بعض الأوراق. كان يقوم بترتيبات المغادرة. تستلمُ ليلى ورقة الشيكِ، بعدما غطّى المبلغُ المدفوعُ من طرف الشماليّ بقيةَ المصاريف. لم يضفْ أحمد شيئا من المال.
يخرج الجميع إلى السيارتين الرابضتين أمام المصحة. تركَب الفتاتان الجيب مع أحمد. وتظلّ السيارةُ الحمراء في متناول رامي.
لم يتفاجأ هذا الأخير من تصرّفِ صديقه. فقد فطِن الرسالة من نظرة كاشفة تبادلاها بسرعةٍ، استطاعتْ أن تحوّل شكّه إلى يقينٍ. ذلك الشكّ الذي تلبّسه منذ حديثه معها هذا المساء.
تطرح ثرثرتها كالمعتاد:

- إلى أين يا سي أحمد إن شاء الله؟

- إلى الحمراء. ما رأيك؟

- أتمنى أن نقضي الليلة في فندقٍ وصباحا نغادر. تعبنا جدا.

- ليس هنا. لنخرج حالا من وزان. في الرباط، قد نجد خدماتٍ أفضل.

تتمددُ هند في المقاعد الخلفية. بعد أن راودها النعاس.

بقيت ليلى وأحمد يتحادثان طوال الطريق. كان رامي في اندماج مطْلَقٍ مع أغنية (بعيد عنّك). بعض الموسيقى كانت تصل إلى سيارة أحمد فيبتهج.

يفاجئه سؤالٌ من ليلي:

-أتعلمُ أن الشماليّ سرق حقيبتك من صندوق السيارة؟ احترتُ متى وكيف أبلغك.

يضحكُ لحظاتٍ دون أن يعلق.

-ما يضحكك يا سي أحمد؟

- إنه مسكينٌ أرهق نفسهُ ففكر وما قَدّرَ.

- أليست فيها اللآلئ؟

- وهل صدقتِ أن اللآلئ معي هنا. إني أودعتها صندوق الأمانات، قبل خروجي

من المطار. وأخذتُ وصلا على ذلك.

يسود الصمت. يخدشه، بين فترة وأخرى، شخير ناعمٌ في الخلف، وأحيانا صوت المذياع الذي كان يصدِر كلاما غير

مفهومٍ، فيتضاعف الشعور بالنوم. لقد ظهرت أدخنة الشواء في مدخل هذه المدينة الصغيرة، سوق أربعاء الغرب، المعروفة بشواء اللحم المفروم على الجمر، مع كؤوس الشاي الأخضر. لم يتوقفوا فيها رغم إكراهات الجوع.

تتقدم السيارتان في سيرهما، فيتجاوزان بلدة علال التازي وبعد أقل من ثلاثين دقيقة تبدو أنوارٌ لألاءةٌ من بعيدٍ. يسري ارتياح في النفوس، تعبر عنه ليلى بقولها: "وأخيرا مدينة القنيطرة يا سي أحمد، الرجاء قضاء الليلة هنا. حقا تعبتُ". تولغ السيارتان في وسط المدينة جهة الجنوب. إلى أن ظهر فندقٌ بدرجة ثلاث نجوم. توقفوا أمامه. بسرعةٍ تمّ حجز ثلاث غرف متجاورة، حسب رغبة أحمد، وعشاء لأربع أفراد. قبل أن يلتحقوا بغرفهم. تعتذر هند عن العشاء. وتسرع إلى غرفتها. يتحلق الثلاثة حول المائدة. كانت شهية شخص واحد أكثر إقبالا على الطعام، في حين اكتفى أحمد و ليلى بلقيماتٍ سريعةٍ، قبل أن يغادروا إلى غرفهم. هند تستغرق في النوم ، في حين تستسلمُ ليلى لحمّام فاتر، قبل أن تلتحق بسريرها. تنطفئ الأنوار بعد ذلك في الغرف الثلاثة الأخرى، ويبقي بصيص في غرفة الفتاتين، وصوت أزرار كمبيوتر بات يشتغل إلى وقت متأخر.

في صباح اليوم التالي على الساعة الحادية عشرة، يرنّ هاتف الدكتور رامي.

إنها زوجته تطلبه.. تبعث إليه بعض الصور مع ابنهما، في حديقة البيت وخارجه. يبدوان فيها سعيدين. فيحدثها عن رحلته. و يحاول

إخفاء الورطة التي تُخيّم عليه وعلى رفاقه. تسأله عن سرِّ همّه. فيراوغ قائلا: هو مجرد شوق لا غير.إذْ لا يحلو لي السفر دونكما". ينهيان المكالمة متمنييْن لبعضهما وقتا أفضل.

يغمغم وهو يتمطى: وقتا أفضل؟!.تبدو هذه الأمنية بعيدة جدا".. بعد الساعة الثانية عشرة زوالا، كان الكل متأهّبا لمغادرة الفندق. تبدو هند أحسن حالا. أما ليلى فجفناها متورمان جدا. ربما لم تنمْ جيدا ليلة أمس.

يقترب أحمد من هند قائلا: كيف يشعر الجميل؟

تبتسم عيناها وهي تردّ: أفضل من قبل. لكني مرهقة ورأسي يوجعني. لقد شعرتُ تحت الماء الفاتر هذا الصباح، بارتخاء يدب في كل جسدي. تلته حكة رهيبة.

- سوف تكونين بخير. أنا معك فلا تهتمي.

- شكرا لك.

- يمكنك البقاء مع ليلى في السيارة.

- فكرة جميلة.

- انتبهي لنفسك. بيننا الهاتف.

- أثق فيك.

يستأنفون طريقهم من جديد. يعرجون على الرباط دون التوقف فيها، ثم على الدار البيضاء فيتناولون وجبة الغداء، في أحد مطاعمها الفخمة.

وحوالي الساعة الثالثة زوالا، كانت السيارتان في غمار الطريق السيّار نحو مراكش. ينتبه أحمد إلى أن لوحة السرعة تسجل ١٦٠كلم/س . يتنفس عميقا مغمضَ العينين.

-الساعة الآن الثالثة والربع. كم بقي من الوقت لنصل يا أحمد؟

- حواليْ ساعتين ونصف تقريباً.

يستغلّ رامي اختلاءه بصديقه طيلة الطريق، ليستكشف منه ما خَفِيَ. كان أحمد يحكي ورامي يستمع. كأنه يتتبع شريطا دراميا هو أحد أبطاله. كانت المفاجآت مهولِة وصادمة. قال أحمد وهو يسرح ببصره في الفضاء الفسيح: أتذكرُ رجلَيْ نقطة التفتيش، عند الباب الخارجي للمطار؟ كانا مدنييْن، لا يرتديان البزّة..

- نعم أذكرهما. ما بهما؟

- الكيس ، غير المرَخّص، الذي كان معي يحمل خرزات من الماسٍ الخالصٍ. أتذكره أيضا؟

- أوقعتَ قلبي يا أحمد ماذا حدث؟.

-وتعلم جيدا القيمة التقديريّة للخرزات. أثمنة خيالية. تصوّرْ يا صديقي هذا الجشع لمّا كل واحد منهما أصرّ على واحدة، مقابل تخليصي وتأمين خروجي.

-يا لهوي..

- أقنعتُهما بشيكينٍ ثقيلين. فرفضا ذلك. صرخت فيهما:

- أنا رجل أعمال كبير. و لي اسم معروف في أكبر الأسواق العالمية. عدم تبليغي عن مجوهراتي ليس جريمة.

ردّ أحـدهما:- لكـن أيهـا السـيد المحترم تعلـم أن التصـريح يثبـت الملكية. قد نحجزها وتنتهي قصتها.

بلعت ريقي الناشـف وأنـا أقـول: لا يمكـن هـذا . أليس لي الحق في جلب هدايا لأهلي؟..

- ستؤدي عنها رسوما "غليظة" إذا ثبت أنها لك.

- لن تستطيعا البيع.

- لا تهتمّ.

مكفهـرّ الـنفسِ أطلعـت واحـدة مـن الكـيس. حاولـت أن تكـون الأصغر. لا خيار لي.

سألني الضخم وعيناه تلمعان: كم قيمتها؟

- ملايين....أوصـيكما بتجـار الـذهب اليهـود. هـم يعرفـون القيمـة الحقيقية لها.

-هل معك من يرافقك إلى وِجهتك؟

- صديقي. هو معي هنا في المطار.

- أقصد خارج المطار، أما صديقك فسيظلّ هنا.

- لا يمكن. كيف يظل هنا؟ هو رفيقي ويذهب حيث أذهب.

- لا تخش عليه شيئا سوف نتدبّر خروجه بعد ذلك.

- هل يرافقك غيره لنرتب معه خروجك.

- خروجنا...لا أريد أن يبقى د.رامي هنا تائها داخل المطار.

- لا تقلقْ هو في عهدتنا إلى أن يلتحق بك سالما.

- سيدتان. و سيارتان.

- جميلٌ إذن، سيارة ستقلُّك أنت وإحدى السيدتين .
-فهمتُ الباقي.
- جميل جدا.هات أرقام الهواتف ودعْ لنا الترتيبات.
- حاضرْ.
بعد ذلك التحق بنا الشماليّ. لم يكن بالداخل. هذا ما بدا لي. ثم رتبا معه إخراجي دون إثارة انتباه أمن المطار.
- غريب فعلاً. رغم أنهما ساعداك على الاحتفاظ بماساتك. لكنْ ما قاما به خرقٌ فادحٌ.
- الخرْق في كل مكان يا صديقي. لا أحد يطبق القانون كما يجب.
-لكن هناك لغزان في الأمر، أوّلاً هذا "الشمالي" من وظفه لخدمتك؟ ثم ما سرُّ تعاطي هند للهروين؟
- فيما يخص الحارس الشخصي، الآنسة هند تكلفت بذلك. أوكلتها مهمة ذلك. وهي طبعا لا تخذلني. أثق بجدارتها. هي فتاة طيبة رغم ذكائها. لكن لكل إنسان مَواطن ضعف.
- هل تمّ استغلالها من جهةٍ متورطةٍ في تجارة الممنوعات مثلا؟
- المال يفتح أمام صاحبه أبواب جهنم، وهو يظن أنه يمشي في الجنة.
تعرفتْ على ثريٍّ من تجار الممنوعات. فتمّت خطوبتهما.
- إنه أمر كارثيّ. هل ما زالا مخطوبينِ؟
- لا، قد فسخاها مباشرة قبل أيام من لقائنا هذا. هند إنسانة راقية. لا تستحق ذلك.

-لابد من مساعدتها. الاحتواء والإشباع العاطفي أهمّ خطوة في العلاج.

يتناول أحمد جرعة ماء من قارورة بجانبه ، ثم يلزم الصمت.

كانت سيارة ليلى تسير بمحاذاتهما أحيانا. فتبدو هند مستندة على المقعد.

تحاول ليلى عبثاً، استدراجها لتكشف ما تخفيه، فتجدها غافية.

- هند هل أنت متعَبة ؟ هل ترغبين في التوقف؟

- لا، بل واصلي.

يرن هاتفها الخلوي. تنظر إلى شاشته ثم إلى ليلى، تفتحه بسرعة، تُجري محادثة مع أختها. تطمئنها عنها. وتعدها بالعودة قريبا جدا.

تقفل الخط وتعود إلى وضعيتها السابقة. تتناول حبة مسكّن ثم تزاول صمتها الرهيب.

ليلى تكسر الصمت بحديثها عن أشياء تافهة لا تحفل لها هند، فتغفو من جديد.

تغمغمُ في نفسها "يا لك من ضحية أيتها الثرية. ترى ماذا وراءكِ أنتِ أيضا؟"

بدأت الشمس تستعد للرحيل وفي جعبتها تشتعل أسرار الكون.

إشارات الجيب الضوئية تأمر بالتوقف. تتنحّى سيارة ليلى و تتوقف أيضا.

مستغربةً تسأل: ما الخطب؟

ينزل أحمد ويختفي خلف السيارة لدقيقتين تقريبا.

عاد وهو يبرر نزوله المفاجئ:" مرضى السكري هكذا نحن. أجسامنا الواهنة لا تحتمل السوائل.هيا بنا".

تستأنف السيارتان سرعتهما بنفس الوتيرة السابقة. لا تتوقفان إلا عند محطات الأداء. هاهم على أبواب المدينة الحمراء. النخل يستقبلهم باسطا جريده الأخضر. بدأ أحمد يتنشّق عبير أيامه الخوالي.

هنا درسَ. وهنا قضى أوقاتا جميلةً مع أصدقائه الذين نسي أسماءهم

مع مرور الزمن. لكنه عاش يحمل ذكراهم وملامحهم .

يقول رامي:

- أحتاج إلى فنجان قهوة.

- نعم وأنا كذلك. إننا على مشارف إنهاء رحلة العذاب هذه يا صديقي.

- أتمنى ذلك. لم أعد أحتمل يا أحمد.

- أعتذر عما حدث.

- لا عليك. المهم أن تستأنف حياتك مطمئنا.

متنهدا يُعرِب عن عدم ارتياحه:

- هيهات..

هاهي السيارة الجيب تطأ تربة الحمراء. تسير في شارع جيليز. تقف أمام أحد فنادق خمس نجوم، يُستقبَلون بحفاوة زائدة. ينبهر الدكتور رامي برونق المدينة الساحرة.

يلتفت إليه أحمد قائلا وعيناه تبتسمان:

- ما رأيك في سهرة للصبح من ألف ليلة وليلة؟

يرد رامي ضاحكا : تذكرتني بأيامنا الحلوة. أوافق بشرط ألا تتجاوز السهرة منتصف الليل.

- السهر يحلو بعد المنتصف يا حبيبي، ما بك؟

- نرجئها إلى الغد. الليلة نستريح فيها من عناء السفر ووعثاء الهمّ الأسوَد الذي لزمنا مذ قدِمنا.

- معك حق. لكني أوصيك بأن تندمج مع الجوّ. اِنسَ كل التوتر، واستمتع بوقتك.

تطلب هند غرفة مستقلة. فكان عدد الحجرات بعدد الأفراد.

يجتمعون، بعد نصف ساعة فقط، على عشاء فاخر. ليستمتعوا بعد ذلك بسهرة جميلة تنظمها فرقة مسرحية تابعة للفندق.

تنسلّ في مستهلّها هند إلى غرفتها.

يطلبها أحمد على الهاتف. كانت جدا ضعيفة. يشعر أحمد حيال أمرها بالقلق. يعرب عن ذلك لصديقه رامي:

- يا رامي لابد من إيجاد حل ناجع للتخفيف عنها.

- إحالتها فورا على أخصائي نفساني. سيساعدها على تجاوز محنتها.

- الإدمان فتاك. وقد يفضي بصاحبه إلى الجنون.

- فعلا. وأخشى أن تُقْدِم على الانتحار..

ينتفض أحمد وهو يردد:لا أبدا،لا يمكن أن يتكرر الأمر.لا يمكن

ذلك.

- أعتذر يا أحمد ولكنّ الاحتمال وارد.

منزعجا ينظر إليه كأنه يقول له:"اخرس". تظهر في شريط متقطّعٍ صور جانيت، ملقاةً على الأرض والدم يسيح من فمها وأنفها. فيصرخ: "لا لا يمكن أن يتكرر هذا".

تتذكر ليلى طلب هند غرفة مستقلة، فتصرخ:

- قد تفعلها يا أحمد. أسرعا إليها رجاءً.

يعمّ الارتباك .فيهرع الثلاثة إلى غرفتها. بعض النُّدُل يستفسرون دون جوابٍ. كانتْ ليلى أول من وصل إلى باب الغرفة. تطرق طرقا خفيفا. أحمد يكاد يفقد عقله، مرددا" لا يمكن..لا يمكن "..

يشتد الطرق هذه المرة. يحضر مسؤول عن أمن الفندق وهو يسأل:

- ماذا يحدث هنا؟

بدؤوا يتبادلون النظرات المبهَمة. يتدخل د.رامي قائلا:

- معنا صديقة مريضة، تدخل أحيانا في غيبوبة. هي في غرفتها لكنْ لا تردّ. هل يمكنكم المساعدة ؟

- إنها مشكلة. لا يمكن الطرق هكذا ولا أية حركة تزعج الزبائن. الوقت متأخر

يا سيدي.

- ما العمل؟

- سنطلبها من الهاتف الثابت. قد تردّ.

- نتمنى ذلك.

بسرعة يتوجهان نحو الطابق الأرضي. بينما ليلى وأحمد يتنصتان بالقرب من الباب.

بدأت رنات الهاتف تلعلع في الغرفة بلا انقطاع. تتصعّد الهواجس، متوجسا أبشع

المكاره يقرر أحمد أمرا: سأكسر هذا الباب يا ليلى وأتحمّل العواقب.

- لا تنس تعبك يا أحمد.

ثم فجأة تقول: إني أسمع حركةً في الغرفة. تعاود الطرق من جديد. لا شيء غير صدى الطَّرْق يملأ سمعهما.

يعود رامي وموظَّف الفندق ببعض البطائق الإلكترونية. أخذ يزاول الفتح من غير جدوى. يقول أحمد:

- من غير المعقول أنْ تفتقر إدارة فندق فخمٍ كهذا، إلى نسخ لمفاتيح الغرف.

- يا سادة، أنا أقدم مساعدة حسب ما طلبتم. لستُ إداريا..

- أين الإداريون؟

في الإدارة طبعا، سوف أبلغهم، فلا تتهوروا رجاءً.

يدير رقم أحدهم، يشرح له بعجالةٍ ملابَسات المشكل، فيلبي مسرعا. رجل بوجه بشوش في يده بطاقة أخرى.

يتقدم نحو الباب وهو يقول"لا مشكلة سوف أفتح ".

بعد نصف ثانية كان الجميع في الغرفة الفارغة. العيون جاحظةً

تفتش. هند غير موجودة في فراشها كما كان متوقَّعا. المسؤول الأمني يوجه أمره للجميع بمغادرة الغرفة ويستبقي ليلى فقط. يردّ أحمد: أنا...قريبها.

روائح الشامبو وسوائل الاستحمام تفوح بقوة. يشير المسؤول وليلى معاً إلى الحمّام.

تقترب أكثر وهي تنادي: هند أنا ليلى..

لا حركة بالداخل. تطرق الباب طرقا خفيفا وهي تقول: أنا ليلى يا هند هل أنت بالداخل؟

تنظر إلى الخلف، كأنها تستأذنهما ثم تفتح الباب بالتدريج . كانت أرضية الحمام مغمورة بالماء والرغوة. كان جسد هند فوق الماء و وجهها إلى أعلى . تزعق ليلى بهستيرية، يدخل الجميع منفزعين.

تنتبه إلى عدسة تصوير مصوَّبة على الجسد العاري. تصرخ في وجه الرجل وتمنعه من ذلك محاولة تدثيرها بفوطة كبيرة. يقول الدكتور رامي: "إنها تتنفس" ثم يلتفت نحو صديقه مؤكِّدا: "إنها على قيد الحياة. أخرجوها بسرعة من هنا". أغشِيَ على أحمد لبضع دقائق. يقيس د. رامي ضغطه. يناوله كوب ماء وحبّةً. يحملق في الحاضرين دون أن يفتح فمه بشيء. تطلبُ إدارة الفندق نقلها إلى المستشفى. يطمئنهم الدكتور رامي قائلا: إنها مجرد غيبوبة مؤقتة. وأنا مسؤول على علاجها.

تؤكد ليلى كلام رامي قائلةً: اطمئنوا، سأبيت معها الليلة .

يعقب ذو الوجه البشوش وصاحبه: نحن في الخدمة. ثم يغادران.

بصمت رهيبٍ، كان الثلاثة يتحلقون حول الجسد الممدّد بلا حِراكٍ أمامهم.

بعد ثلاثين دقيقة ، يرنّ الهاتف الثابت: أحد موظفي الفندق يطمئن عن حالة هند..وقبل أن تردّ ليلى بدأت هند ترتعشُ. يصرخ الجميع "إنها تفيق. إنها تسترجع وعيها". أحمد على كرسيٍّ بجوار سريرها، يهمس "الحمد لله".

يحاول الدكتور رامي استقياءها. تقذفُ الكثير من الماء، من معدتها.

تقول ليلى: "كانت على وشك أنْ..". يقاطعها أحمد بنظرة قاسية فتصمت. ظلت ليلى تساعد في عملية الاستقياء، و أحمد يتابع جزِعا دون أن يعلّق. لقد أعاده المشهد إلى أشياء فظيعة ترقد في الذاكرة. أشياء ستظل مرتبطة بفنلندا.

يتراءى له في البعيدِ جسد حبيبته مخضبا بالموت. والمسدس البغيض يلامس أصابع يدها.كأنه يسمع الطلقة اللعينة التي أودتْ بها. ينفتح الجرح فيقرأ بالخط العريض سؤالا فارقاً:

هل انتحرتْ أم اغتيلتْ؟..

يتردد في داخله نفس الصوت المخنوق الذي يلازمه: " العدالة الفنلندية لم تُدِن أحدا. لكنك مدانٌ مدى الحياة يا أحمد. ماذا لو كنتَ بجانبها تلك الليلة؟ لكنتَ ساعدتَها ولَظلّتْ..."

يتمدد أمامه ذلك الشريط الأسودُ فيستعيد كل ذرّةٍ منه: أُغلِقَ

الملفُّ بعد ختمه بتصريحات كل من كان حول مسرح الجريمة ليلتها. الخَدمُ والحارس الأمني للفيلا والبستانيّ .كلهم أدلوا بشهاداتهم. كانت القرائن كلها تثبت حالة انتحار. سلّمَ بالأمر.

حمل الذكرى القاسية في قلبه ورحل. يضع يديه على أذنيْه كأنه يتقي أصواتا مزعجة فيخاطبُ نفسه: مازالت كلماتها الأخيرة تطنّ في أذنيّ. كانت يائسة مُحبَطة. وكنتُ نرجسيا مُثخنا بالأنا. ها أنا أتجرع الندم والمرض.

شيء واحدٌ اقتنعتُ به: المال وحده لا يصنع السعادة. السعادة في الحبّ والحبُّ لا يباع في أسواق المالِ. أنا أملك المال. لكني لا أملك السعادة.

هذا المال نقمة عليّ و أنا نقمة على من أحبّهم. هناك لعنة تتبعني أينما حللت.

إنها لعنة اسمي الذي تخليتُ عنه. لما كنتُ عبد الله الفقير المحب الطيب كانت

سعادتي حولي: هي أمي ، نجاة ، إخوتي ، و هواء تنغير...

وحينما اكتسيتُ حقيبة سوداءَ لا تبرحني، تبعتني لعنة بلون حقيبتي.

ها أنا عائد إليكِ يا أمي. بعد ثلاثين حولا من الغربة. لا أدري هل سأشتمّ رائحة البخور في ثيابك وفي شعرك من جديد؟ هل ستفرح الضيعة لمروري وتنبح كلابها حين تراني؟.ياه ما أقساني وما أخذلَ شيطاني !".

كانت هند في هذه اللحظة تفتح عينيها
يهرع الجميع إليها إلا أحمد كان ساهما في عالمه.
تستوي جالسة فوق السرير تبعثر بصرها في الغرفة : ماذا حدث؟ لماذا أنتم هنا؟ إني أشعر بعياء فظيع.
بصوت واحد يقولون: "عْلى سْلامْتك".
تمسك رأسها بيديها وهي تردد بصوت خفيت: رأسي رأسي.
يغيب الدكتور رامي لحظةً ثم يعود بحبة مسكن. يناولها إياها:
تشكره قائلة: حبذا يا دكتور لو حقنتني بـ...
يقاطعها قبل أن تتمم عبارتها: ثاني؟ مش حنخلص؟
- أقصد الحقنة التي أخذتُ في الشاون. كانت أفضل.
- يا بنتي بطلي أي حاجة لها صلة بالحقن. خلاص اِنسي. تعّبتينا معاكي.
- آسفة..
تلتفت إلى ليلى وهي تقول: عافاك ساعْديني باش نلبسْ البيجاما دْيالي.
تومئ لهما ليلى بالمغادرة إلى غرفتهْما. ينهض أحمد متثاقلا، كأن هموم العالم جاثية على صدره، دون أن يقول شيئا يمسح بيده على رأسها ويغادر.
- خلي بالك من صحتك يا أحمد. مش كده يا صاحبي قوّي عزيمتك شوية.
متنهدا بعمق ، يستنشق الهواء بصعوبة ثم يقول:

- أخاف عليك مني يا رامي.
- ماذا تعني؟
- إني أحبك مثل أخي و أكثر. كما ترى كل من أحبهم يرحلون.
- تقصد يموتون. دع عنك هذه الوساوس. وأقلع هذا التشاؤم المدمّر من رأسك.
- إنها الحقيقة. غدا صباحا سأسافر إلى قريتي تنغير. وأنت عد إلى أسرتك أو تفسّح هنا على حسابي، خذ هذه الـ ..
يقاطعه الدكتور غاضبا: ما هذا الهراء يا أحمد؟ لن أبرحك حتى تصل إلى قريتك بسلام. اِعتبر أني لم أسمع شيئا من هرائك.
يصل أحمد إلى غرفته. وقبل أن يفتح الباب يلتفت نحو رامي قائلا:
- أنت أحسن صديق في العالم.
- سوف تكون بخير اطمئن. هي حالة عابرة. تأكد من كلامي. ولن أتركك حتى تصل إلى بلدتك فقد شوقتني إليها.
يصمت قليلا ثم يضيف مبتسماً: و تزوجني إحدى حسناواتها.
يبادله أحمد ابتسامة خافتة وهو يقول: من عينيّ.
يستعذب رامي النهاية المرِحة للحوار فيضيف:
معاً وفي ليلة واحدة. أنسيتَ نفسك؟
ينظر إليه وقد وهنت ابتسامته. يرفع يده مودّعا ثم يغلق الباب ويختفي.
أما في غرفة هند، فتحاولُ ليلى عبثاً أن تنزع منها إجاباتٍ على أسئلتها الفضولية: - كيف بلغتِ إلى حالة الإدمان يا هند؟. كدتِ

أن تغرقي لولا حضورنا في الوقت المناسب.
كانت هند ترد باقتضاب غير مشبعٍ ولا مقنعٍ. ثم حسمت ردّها:
- يا مدامْ من طلب منك نجدتي؟
- ماذا تعنين يا هند؟
- ما سمعتِه..
- يعني كنتِ تدبرين انتحاراً..
- لا كنتُ أدبّرُ خلاصا..والآن سأشبع فضولك أكثر،أنا سيدة أعمال.
أسافر كثيرا إلى الخارج. ومنه أجلب ما يكفيني استهلاكه طيلة إقامتي بالمغرب".
تنظر إليها ليلى بارتيابٍ، فتستأنف بهدوء تامّ:
"أنا لستُ كما تظنين يا مدامْ. فانزاحي عن طريقي"
يسود الصمت. تفتح ليلى حقيبة يدها، تُخرج علبة لَبان(علك).
تُطلع واحدة لهند وهي تطرح سؤالا خبيثا:
هل لصديقيْك علاقة بموضوع إدمانك؟
ترمقُها هند بنظرة غريبة، وتطلبُ منها المغادرة.
تعتذر ليلى بشدة و علبة العلك ما تزال ممدودة نحو هند:
- لا أقصد الإهانة يا صديقتي .
-اسمعي أنتِ لستِ صديقتي. فاخرجي من هنا.
تصْفق الباب خلفها دون أن تنبس بكلمة وتغادر.
في تلك الليلة أيضا، لم تنطفئُ الإنارة في غرفتها. ولم تتوقف

أصابعها عن الحركة إلى طلوع الفجر.
هند أيضا لم تنم بعدَ تلك المناورة الاستفزازية. فتهتدي إلى رغبة مجنونة. تتناول هاتفها وتركِّب رقم الدكتور رامي:
- ألو يا دكتور أريد من حضرتك خدمة.
- تفضلي
- أرغب في سيجارة. لا تمانع رجاءً. لم أجربها من قبل لكن الآن الأمر يختلف.
- سأحضر لك واحدة.
- شكرا لك.
بعد دقيقتين كان رامي أمام باب غرفتها. يناولها سيجارة مقدوحة وينصرف.
الأدخنة الملتهبة تخنق معدتها ورئتيها. يبدأ السعال الحاد فالبصاق، فالتقيؤ. تتلون المغسلة بالسواد والصَّفَار.
كادت تفقدُ وعيَها من جديد. بدأتِ الرجفة المخيفة.لكنْ لم تتبعها تلك الحكة اللعينة. تستعيدُ سكينتها هذه المرّة دون مساعَدة. ترفعُ عينين متثاقلتين إلى المرآة أمامها مرددةً: "غدا صباحا سأبحث عن أخصائي من أجلك يا هند. سوف تكونين بخير. ثقي بي. لن يتغلب عليكِ إدمانٌ حقيرٌ". تمضمض بعض الماء، ثم تتمايل عائدةً إلى فراشها وعلى شفتيها ترتسمُ ابتسامة بلا لون.
في صباح اليوم التالي تنهض من نومها على صوت المنبه. تشفط

وجهها بالماء البارد، وتستعد للخروج من أزمتها. مزمِعةً على قرارها، تعرج على مطعم الفندق. تتناول فطورا سريعا. ثم بعد دقائق كانت في سيارة الجيب.

وقبل تشغيل محركها تقوم بتحرير رسالة إلكترونية لأحمد: " عزيزي أحمد، أعتذر عما بدر منيّ. الأحداث يا صديقي تسير أحيانا عكس ما نخطط له. نحن رهن قوة عظمى تتحكم في مساراتنا. نعجز عن صدها. إنه قدرنا. أنا الآن في طريقي إلى التغيير. قد يحالفني القدر هذه المرة. لأنه خياري الأخير. لن أتردد. ولن أخذل هند البريئة التي ظلمتُها.

صديقي إن تلك المرأة المدمنة قد رحلتْ بلا عودة".

تمسح دموعها الغزيرة، ثم تضغط على زر"إرسال" و تنطلق نحو قَدَرها تجوب شارع جيليز بحثا عن طبيب نفسانيّ..

البوابة رقم ٣١

الليل في مراكش ساحرٌ طيلة السنة.
لكنه في الحرّ خانقٌ لا يطاق مثل ليلة أمس.
يسيقظ الدكتور رامي متأخرا على غير عادته هذا الصباح، يأخذ حماما بسرعة
وينزل إلى مطعم الفندق. ظانًّا
أن الآخرين قد استيقظوا قبله. فلما لم يجد أحدا اتصل
على أحمد.و بعد دقائق كانا يتناولان الفطور معا و يتحادثان. قال أحمد وهو يتناول قهوته الخالصة:
- وضعُ هند الصحيّ مقلقٌ جدا يا رامي. ولا يمكن أن تعود إلى أسرتها قبل أن تتعافى.
- أنا أيضا أفكر في أمرها. العلاج يتطلب وقتا طويلا. كما يتطلبُ صبرا طويلا.
- أنا نمتُ متأخرا ليلة أمس. واستيقظتُ متأخرا أيضا. فلم أطمئنّ بعدُ عليها.
- ليلى توجد معها الآن. و هذا جيد.
يأخذ هاتفه و يركب رقم ليلى .يبدأ ذاك الرنين المستفز.فيعيده إلى جيبه وهو يقول:
"ليلى لا ترد . إمّا أنها ما تزال نائمة أو في الحمّام"
يخرج علبة مناديله الورقية من جيبه، يمسح جبينه من العرق

المتصـبِّب ودماغـه لا يتوقـف عـن التفكيـر. يعيـد علبـة الـورق الصـغيرة إلى جيبـه ويخـرجُ هاتفـه مـرة أخـرى، على شاشـته يلاحـظ رسالة من هند. مرتبكا يفتحها:

تضـطرب حركاتـه، لا يعـرف هـل يقـف أم يجلـس أ م يـركض؟.. بـدأ ينظر حوله وهو يردد: يا إلهي، كم جميل هذا اليوم !

يسأله د.رامي: أراك متقلب المزاج يا أحمد. ما سرّك ؟

يناوله هاتفه قائلا: اِقرأ. يحدق في الرسالة وهو يصيح:

- شيء رائعٌ. وأخيرا خطتْ خطوتها الحاسمة.

- أجلْ، وسننتظرها خارج الفندق، هيا بنا.

السـاعة تسـجلُ الثانيـة عشـرة والنصـف زوالا. السـيارة الحمـراء تحت تصرفهما. تتكرر محاولات الاتصال بليلى دون ردّ.

يقول رامي معقبا:

- أمرها محَيّر حقا إذْ لا يجب أن تغلق هاتفها.

- ما رأيك في تسريحها من خدمتنا؟.

- عين الصواب .

يتوجهـان معـا إلى غرفتهـا. يتـأخر د.رامي قليلا، بينمـا يتقـدم أحمـد نحو الباب، يطرقه طرقا خفيفا.

يقول د. رامي: ربما رافقت هند إلى عيادة الطبيب.

- محتمَل ذلك.

يتوجهـان إلى المصـعد الكهربـائيّ الـذي ينقلهمـا إلى الطـابق الأرضي، ومنه إلى الشارع. يقومان بالبحث عن السيارة أمام الفندق. يردد

أحمد: ما معنى هذا؟

- أظن أخذتها لتتفسح.

- تتفسح يا رامي، هل هي في حديقة أبيها؟.

يُخرج هاتفه ويتصل بهند:

- ألوو يا هند كيف الحال؟

- ألـوو. أنـا عنـد أخصـائية الطـب النفسـيّ. منتظـرة دوري. لـم يبـق أمامي إلا شخصان.

- اعطينا العنوان لنلحق بك أنا ورامي. هل ليلى معك؟

- لا أنا بمفردي. خذ العنوان وعندما نلتقي ستعرفان المستجَدّ عن هذه المرأة.

تنـاوش الهـواجس أحمـد مـن جديـد. يلتفـت إلـى رامـي قـائلا : -كـلام هنـد عـن ليلى لا يطمـئن. تتعاقـب علينـا المشـاكل، فـلا نكـاد نرتـاح حتى تنبري أمامنـا عقبـة أخـرى. مـا هـذا الحـظ يـا إلهي؟". يسأله د.رامي وقد ارتسمت على وجهه علامات الحيرة:

- ماذا سنفعل يا أحمد؟

- سنلحق بهند ونرى بعد ذلك ماذا يمكننا فعله. الأمور بدأت تتوتر مرة أخرى.

- علينا التفكير برويّة. فغياب ليلى غير المبرَّر يشي بأشياء لا تطمئن.

يستقلان سيارة أجرة إلى العنوان المذكور في الرسالة.

كانـت هنـد لحظئـذ داخـل مكتـب الطبيبـة، عنـدما دخـلا العيـادة. يمدّ رامي يده إلى مجلة أمامه، يُنصِبُ نظارته الطبية فوق أرنبة

أنفه العريض، بدل الشمسية السوداء التي كانت تغطي عينيه بالكامل، ويشرع في التصفح، في عمق أريكة جلدية ناعمة جدا.
يحاكيه أحمد، لكنْ سرعان ما يلقي بالمجلة المهترئة فوق الطاولة الزجاجية أمامه.
و يقوم إلى الحمّام مسرعَ الخطو كطفلٍ يخشى أن يتبول على سرواله.
بعد قضاء حاجته، تتطلع إليه المساعدة قائلة بابتسامة ماكرة:
-هذا الحمّام خاص بالطبيبة. ألم تشاهد كلمة "خاص" يا سيدي؟
- عفوا، لم أنتبهْ.
ينظر إلى الملتفتين إليه، يرفع حاجبيْه و يسند ظهره إلى الجدار أمام شاشة تلفزيون معلقة في زاوية من زوايا القاعة ، مدَنْدنًا بأغنية أمازيغية من أرشيف الذاكرة.
بعد زهاء ساعة من وصولهما، تطلّ هند بابتسامة خفِرة تشنّف وجهها:
-أوف، أزحتُ عن كتفيّ صخرة سيزيف. كانت حِملا ثقيلاً.
- أنا سعيد بسماع هذا.
يقول د.رامي: ألف حمد لله على سلامة حضرتك .
- شكرا. أنتما أروع صديقيْن عرفتهما. سأتحدى الألم. سأتحدى الإدمان بكل قواي. لقد ناولتني الطبيبة بعض العقاقير كانت كالسّحر.
يردف د. رامي:

- أهم شيء هو متابعة العلاج بإصرار بليغ. أتمنى أن لا تتهاوني أبداً.
حظا موفقا. - شكرا يا رامي.
لكنْ أخبراني أولاً، أين تلك الجاسوسة الرخيصة؟ لم أعد أطيقها.
- لقد أخذت السيارة واختفت منذ وقت مبكّر.
- اختفتْ؟!
يقول أحمد: أظنها هربتْ.
- توقعتُ ذلك. هيا بنا إذنْ. هناك أمر ضروريّ لابدّ من الإسراع بإنجازه.
تأخذهما إلى وكالة كراء السيارات. وكالة مستقلة تابعة لشبكة كبيرة للخدمات
الاجتماعية، ذات فروع في جل مدن المملكة. لتُبلّغ عن اختفاء ليلى واختفاء

السيارة المسجلة باسم هند التلمساني لدى الوكالة.
تحتفظ بنسخة من محضر البلاغ. يقوم المسؤول بعدة اتصالات مع فروع مؤسسته للإبلاغ عما حدث. حسب ما فهمتْه هند من محادثاته.
يعتذر بشدة ويعدهم بمتابعة السائقة قضائيا، إذا لم تُسَلَّم السيارة في ميعادها إلى أقرب وكالة.
ثم يضيف: على العموم سنظلّ على اتصال بكم إلى أن تظهر المرأة المختفية. قد نحتاج شهادتك يا آنسة، وربما تعويضا.
- ماذا قلتَ؟.

- لا تنسيْ أن السيارة مسجلة باسمك ومسؤوليتك.
يقول أحمد: ومن أدرانا أنها خطة مدبَّرة من الوكالة؟ فقد اختفى حارسي الشخصي أيضا.
- نحن مسؤولون عن السائق والسيارة فقط. لا علاقة لنا بأمر حارسك يا سيدي.
تتبادل هند نظرات حائرة مع صديقيها ثم تعقب بابتسامة شامتةٍ:
-إلى الجحيم هما معا.
يردف أحمد:
خدماتكم "صِفر من عشرة" .
يعقب الرجل ببرودةٍ:
مع السلامة.
ينطلق الثلاثة إلى وسط المدينة الكبيرة. تسير الجيب في أحد شوارعها الجميلة. يقودها الدكتور رامي وأحمد عن يمينه. هند في الخلف صامتة أيضا. يدوم الوضع كذلك دقائق معدودات، ثم تقول: الجو مختلف هذا اليوم. كأنه الربيع .انظرا إلى السماء. إنها تشبه وجه طفل صغير.
يدرك أحمد ورامي سبب تلك الغبطة فيبتسمان.
يقول رامي : هند بدأت تستشعر الجمال من جديد ، وهذه ثاني أهم مرحلة في العلاج.
- نعم، فقد كان الاستعداد لتجاوز أزمتها قرارا صائبا.
يميل أحمد عليه، و يده على كتفه موشوشا: الليلة يا

صديقي نبدأ احتفالنا بانتهاء الأزمة.
يهمهم رامي"أخشى أن نكون في منتصفها يا عزيزي. الغموض يكتنف كثيرا من الأشياء ".
هند تعرب عن سعادتها بما سمعت. يواصلون ثم يشير أحمد إلى أحد المطاعم الأنيقة. تقف السيارة أمامه. تقوم فتاتان جميلتان بخدمة الزبائن بابتسامة لا تفتر. و بعد تناول "طنجية" شهية مع شاي لذيذ بالنعناع المراكشي طيب النكهة والرائحة، دُعوا إلى جولة في ساحة الفناء للالتذاذ بأجواء مراكش السياحية. كان ذلك اقتراح إحدى النادلتين، بعدما أخذتْ بقشيشا سخيا من أحمد.
ينطلق الثلاثة بعد خروجهم من المطعم، إلى الساحة الشهيرة لحضور مراسيم الغروب وبداية الفرجة والمتعة.
قبل المغرب بساعتين تقريبا، تصل الجيب إلى منارة الكتبية الخالدة، حيث بدأ افتتان الدكتور رامي بالمنظر الآسر يسري في كل كيانه. فيُخرج آلة تصوير ويصوّب عدستها على وجه الماء الناعم، حيث تنعكس المنارة الساحرة بكل تاريخها.
ثم يطلب من أحد المتجولين التقاط صورة له مع صديقيه.
السعادة تطفح على وجوههم بعدما طلّقتْها أياماً..
تخطر على أحمد فكرة جميلة فيلتفت إلى صديقيه وهو يشير بإصبعه أمامهم:
ما رأيكما في الكوتشي؟
تقول هند: الله .

متأملا المنظر أمامه يقول د.رامي :

-الحنطور؟

يردان معاً بصوت واحد:

- الحنطور.

فيتضاحكون طويلا كأنهم يستقبلون ضحكاتهم بعد غيابٍ. ثم يودِعون السيارة في مستودع خاص. و يستقلون العربة الزاهية إلى ساحة جامع الفناء القريبة جدا من هناك. وقْع حوافر الحصان يتناغم مع حركة أجسادهم. رامي يُصدر صفيرا مثل بلبل شادٍ. وهند تنظر إلى السماء بوجه منشرحٍ.

يتوقفون أمام مقهى من طابقين، يطل على الساحة مباشرة. تستغل هند احتساء صديقيها قهوتهما.

وتدلف نحو أقرب صيدلية ...

وفي طريقها إليها يعاودها الوجلُ. فتتفرس المارّة، كأنها تبحث عن وجه أمها بينهم. تعْبر إلى الطوار الثاني. يظهر من خطواتها المرتبكة أنها لا تعرف الوِجهة جيدا. تستوقف أحد المارّة لتسأله عن أقرب صيدلية، رجلا كهلا كان يتحدثُ في الهاتف ويدخّن، يشير بسبابته إلى زقاقٍ أمامه في الجهة الأخرى، دون أن يقول شيئا. تعبر من جديد ذلك الشارع إلى حيث أشار الرجل. يساورها الهاجس الغريب الذي راودها قبل قليل، شرعتْ تهرولُ وتتلفّتُ حولها، إلى أن وقعتْ عيناها على إعلانٍ معلَّقٍ على ناصية الزقاق. تتطور الهرولة بعد ذلك إلى عَدْوٍ خفيفٍ.. تصل إلى البناية البيضاء

ولسانها يلهث. تجلس فوق أحد الكراسي تلتمس استراحةً..ثم تشتري ما في الوصفة الطبية. تطلب كوب ماء أيضا و تبلع قرصين حسب الوصفة. إشارة من هاتفها تُشعرها برسالة جديدة، كانت من أحمد يتفقدها:

" كيف الأمور؟". ترد عليه بكلمة :"تمام" وتقفلُ عائدة بخطى ثابتة إلى المقهى. تقودها إليه أهازيج جميلة، تملأ أصداؤها الدنيا حولها. السياح يتوافدون باستمرار على مدينة "البهجة" العتيقة. يجلس الأصدقاء الثلاثة يتأملون الساحة وزوارها الكثيرين. يتناول الدكتور رامي سيجارة. يقدح رأسها بشرارة من قداحته. يتركها تذوب بين شفتيه لثوانٍ، كان يتأملها كغانية تحترق بين إصبعيْه.

يُلهبها من جديد بحرارة شفتيه حتى تزنِد، فيقذف دخانها الممزوج بطفرة حنين إلى حياته الخاصة. ينظر حوله، هناك في الزاوية المقابِلة لمقعده تجلس أوربية جميلة. لها جسد كعامود النور. تتحدث مع جليسها بالإنجليزية. إنها تبتسم كلما التقت نظراتهما أو هكذا يُخيّل له. وفي الجهة الثانية عند مدخل المقهى،

جسد آخر من شمع يشتعل فوق كرسي حول طاولة مستديرة. عينان فاتنتان. تجتمع فيهما بُحور الأرض والشِّعر.

يتناول هاتفه ويركب رقم زوجته:

- هل تستطيعين القدوم؟

- إلى أين؟

-إلى المغرب.

- متى؟

-الآن؟

- هل أنتَ بخير؟ صوتك واهنٌ .

- أريدكِ الآن.

تضحك وهي تقول: مجنون يا حبيبي كعادتك.

- أحبكِ .

- أحبكَ أكثر.

يقفل الخط.

بعد دقيقة أخذ سطح الطاولة يتفاعل مع رنة جديدة:

- ألوو

- لم أفهم قصدك. هل أنت جادّ؟

- اشتقت إليكما.

- ونحن أيضا. مازلنا في أوتاوا. ماما تحييك.

- استمتعي بوقتك. بلغيها تحياتي. قد أعود قريبا. قبلاتي لهيثم. باي..

- أوكي. باي.

أخذ يؤثث في خياله، تصورا جميلا لهذه المدينة التي تميزها سمات الجنوب المصري. بنفس الطابع البيئي الجميل. فيسحب ورقة من مذكرته ويدلق عليها تصوراتِه:

أيَّ حنين لعينيكِ هذا المساء، يراودني عن نفسي لأرتديك من جديد، أيتها القادمة من سعفِ النخيل! ذلك البِساط الجميل من

بلادي، يحمل تخمة الفن
الفرعوني الضارب في القِدم، إلى عتاقة مراكش الحمراء، مدينة الخصب والجريد.
هي مدينة قصور البديع و الباهية، والمنارة النائمة على خد الماء، كأميرة عاشقة للخلود.
هي عبق التاريخ المرابطي و الموحِّدي والسَّعدي.
مدينة السبعة رجال، فقهاء متصوفين تُخَلِّدُ المدينةُ أضرحتَهم ، كما تخْلُد قبورُ السعديين ومآثرُ أخرى.
في هذه الساحة الماثلة أمامي، تجنح الخرافة إلى بسط أذرعها لاحتضان عشاق الغروب. حيث يتزاوج الواقع والأسطورة، على أنغام الناي و البندير، ورقص الثعابين، داخل حلقات تغوص بروادها في الماضي البعيد، فتتحدى تكنولوجية القرن الواحد والعشرين، لتستقطب حنينا للحكي وللغرابة. فعندما تدعوني امرأة مخاتِلة إلى قراءة حظي ومستقبلي في الورق، وأنا مُمتثلا أحدق في عينيها،
أليس هذا هروبا من حقيقة ما؟ من واقع مُثخَن بالتمويه إلى حد التصديق؟ ألستُ أُلقي خلف ظهري نظريات المفكرين جميعهم، لأغوص في الدجل إلى ذقني؟
جلستُ قبالتها وشرعتُ أردد:ها قلبي، ها تَخْمامي،
ها باش ياتيني الله.
في هذا المساء، يا خليلتي، وصلت عربة من عربات مراكش الزاهية

المسماة الكوتشي إلى ساحة جامع الفِناء. كانت مميزة جدا. تجرها جيادٌ مطهّمة بالديباج والحرير المطرز بالذهب. يسوقها رجلان بلبس الحرَس الملكي.

تمشي خلفها حاشيةٌ من الزمن السحيق. دققتُ النظر في السيدة الموشّاة بالياقوت والزمرد، التي تظهر داخل العربة. كانت فاتنةً. اقتربت منها فإذا بها تبتسم لي قائلة:

- ألم تعرفني؟

- بلى أنتِ نفرتاري. لا يجهلك إلا أحمق.

- وأنت رمسيس العظيم. قدمتُ من هناك بحثا عنك. هيا اركبْ بجانبي. سنحتفل الليلة . سنشرب نخبَ حبنا الأزلي. هيا.

- إلى أين؟

- إلى قبور السعديين. كل الملوك هناك ينتظرون قدومك للشروع في الاحتفال.

هذه الطبول و المزامير، ألا تسمعها؟

- بلى. إني أسمعها وأطرَب لها. لكن أليست هذه الأهازيج في معابدنا بأسوان؟

- لا. هي ترددات صوتية قادمة من خارج الزمن.

- كأني أسمع صوت أخيك أمينوس.

- نعم. إنه هو، جاء ليوثّق زواجنا.

- ألستِ زوجتي أيتها القديسة؟

- بلى وأم أولادك. هيّا لا تكثر الجَدل يا مولاي هات يدك.

أبسطُ يدي العريضة فيصافحني أحمد مبتسماً. أنتبه إلى من حولي،

هند تتأمل هذا البذخ الثقافي بإعجاب. هي في عالمها أيضا. كلٌّ في عالمه هائمٌ على وجهه. أبتسم وأنا أقول لها:

- نفرتاري.

ترد مستوضحةً:

-أين هي؟

- أنتِ تشبهينها. كانت سمراء ساحرة.

تقول مردفةً وقد اتسعت ابتسامتها:

- لكنها أسطورة جميلة من الماضي.

- وأنتِ حقيقةٌ جميلة من الحاضر.

يصفّق أحمد لهذا التماهي الجميل مع الأسطورة. يروقه تشبيه هند بإحدى أجمل ملكات الفراعنة. ينظر إليها بعينين حانيتين وهو يقول: أنتِ أجمل.

مبتسمين يغادرون المقهى مع بروق أعمدة النور.

يرنّ هاتف هند، تفتح الخط:

- آلوو.

- آلوو هند كيف حالك؟

- أنتِ؟ أين اختفيتِ؟.هذا الذي قمتِ به إخلالٌ بالواجب.

- كنتُ في مهمة.وأرجوك لا تنفعلي.

- أين السيارة؟ هل أعدتها إلى الوكالة؟

- ارفعي عينيكِ إلى الجانب الأيسر للمقهى الذي أمامك.
السيارة الحمراء جاثمة تحدق في صمت. تصرخ هند بأعلى صوتها:
السيارة. السيارة. انظرا.
ينظران معا باندهاش حيث تشير هند. يتساءل أحمد: من يوجد بداخلها؟
- ربما ليلى.
يهرول الجميع إليها. تترجل ليلى وفي يدها حقيبة سوداء. تنظر إلى أحمد قائلةً: ها حقيبتك أ سي أحمد. تستطردُ ملتفتةً إلى الآخرين: أعتذر جدا عما حدث. و إلى هنا تنتهي مهمتي.
تغيب ألسنتهم في حناجرهم فلا ينطقون.
ثم يندلق لسان أحمد:
-ليس قبل أن تُجلي هذا الغموض. بربري تصرفك الأهوَج . أين صاحبكِ؟
- من تقصد يا سي أحمد؟
- المعتوه الذي سرق الحقيبة؟
- لنجلس في مكان هادئ ونتحدث.
يتوجه الجميع بعد تشاور سريع إلى حديقة صغيرة بجوار المنارة. يقتعدون كراسي متقاربة.. تقول هند: نحن نستمع هيا احكي واكشفي وجهك الحقيقي.
" لن أكون دقيقةً في سرد التفاصيل ولكن سأضعكم في الصورة بعجالة:

أعلمُ ما تشعرون به من سوء ظنّ بي.. فمهما بررتُ فلن تعذروني.. لكن اعلموا
أني كنتُ حريصة على سلامتكم وأمنكم.
يقول أحمد مقاطعا: قلتِ "بعجالة" فأوجِزي نحن أعجل.
تُخرج بطاقة من حقيبتها، تبدو من لونها الأحمر والأخضر أنها تتعلق بوزارة الداخلية. يمدّ أحمد يده لاستلامها. يقرأ محتواها بصوت مسموع : الاسم بديعة السرغيني. السن ٣١ سنة. المهنة :ضابطة تابعة لمنظمة الشرطة الجنائية الدولية. يرتج الجميع في مقاعدهم
ارتجاجا يعكس كل الأفكار المخبوءة إلى الواجهة. فيصفرّ منِ يصفرّ، ويخضرّ من يخضرّ..
تلتصق الحلوق وترتبك الأفكار ثم يرتفع الضغط.
يردف أحمد: أهلا ومرحبا. الأمن بيننا منذ البداية ونحن مرتعبون !؟ كم أغبياء نحن !. أهلا أهلا.
تعقّبُ هند بعد أن بلعت ريقها: اكتشفتُ من مكالمة لكِ، أنك من نساء الشرطة، لكن ما فطنْتُ أنك بهذا الحجم.
- طيب اسمعي، في الوقت الذي طلبتِ فيه كراء سيارة وسائق، تم التنسيق مع الوكالة. تلك أمور لا تصعب علينا.
كانت مهمتنا متابعة خيوط عملية مشبوهة، بدأ حوْكُها خارج الوطن.
فاقع الوجه، يسألها أحمد: ثم ماذا ؟ ما النتيجة؟.

في تلك اللحظة يلتحق بهم ثلاث رجال. حيتهم ليلى أو (بديعة) مبتسمةً وهي تقول:

- أظنكم تعرفتم على بعضكم من قبل.

يشحب لون د. رامي. يململُ شفتيْه، متفرسا في وجه اثنين منهم:

- يا أحمد، أليسا رَجُلَيْ المطار؟.

- بلى يا رامي. هما صاحبا الماسة.

ينطق أحدهما: بْغيناكْ معنا أ سي أحمد واحد السُّوَيْعَة.

- عاودْ ثاني؟ عْلاشْ اشْنو كايْن؟ مافهمتْ والُو.

- غادي تفهم كلشي. يَلاَّ معنا.

يلقى أحمد بنظرات استفهام وتشكيك إلى بديعة. تطمئنه بابتسامتها الوديعة.

كان فزِعاً جدا.. تقتربُ منه قائلة، وهي تشير إلى رفيقيْه أيضا:

- اركبوا سيارتكم. واتبعونا. سننهي بعض الإجراءات، وتذهبون بعد ذلك إلى سبيلكم.

تنظر هند إلى أحمد ثم إلى رامي دون إصدار نأمة واحدة.

يركبون الجيب مرة أخرى ويتعقبون السيارة الحمراء. الصمت سائدٌ إلى درجة السأم. الدكتور رامي خلف المقود. أحمد إلى جواره يقلّب دفاتره القديمة. مرة أخرى في غرفة نومه بأنتاريو. يقول مخاطبا نفسه: "ها قد وقعتَ يا أحمد.لا أحد هنا يعرف الحكاية إلا أنت وصديقَاك، د. رامي شهِد بعضها، وهند تعلم تفاصيلها منك. لا أحد يصدقك إلا هما. ترى هل بوليس المغرب سيصدقك

ومسرح الجريمة بعيد خلف الشمس؟ أنت من سيختفي خلف الشمس إلى الأبد.

هل سيظلان وفيْن لزيارتك ما تبقّى من عمرك خلف القضبان؟ صديقك راحل لا محالة إلى عالمه وأسرته.. هند سوف تتزوج، فيمنعها زوجها من زيارة مجرم عجوز.

سأقَيَّدَ مجرِما في كنّاش الحالاتِ الجنائيةِ الدولية. سيلفظني التاريخ كما لفظني الأهل والوطن. لا ، لم يلفظني أهلي أنا من خذلتهم وابتعدتُ. ولا الوطن لفظني. لكنه خذلني حين سكبتُ جزءا من عمري فى فجاجهِ ، فتبخر قبل أن يلمس رماله.

اليوم نؤدي الثمن معا يا وطني. اليوم تضم صدري بكل قوتك داخل زنزانة حديدية إلى الأبد. أهكذا يحضن الخِلُّ خِلَّه؟ أ بهذا القَدر تحبني؟ لكني أحبك بشكل مختلف أيها الأب الغاضب. أحبك حرا طليقا فسيحا، فأحِبَّني حرا طليقا فسيحا..

أنا أخطأتُ. وأنت أكبر من أن تعاقبني. أنا قزمٌ ضئيلٌ أمام عفوِك.. عائد إليك بحمولتي الثقيلة بهمّي ومالي. الآباء لا يتخلون عن أبنائهم. وأنت لن تتخلّى عني.

لأنك تحبني. لأني أظنك تحبني."

تتوقف السيارة الحمراء أمام بناية كبيرة في أطراف المدينة. إنها فيلا واسعة،

يظهر ذلك من البطاقة النحاسية على ناصية بابها. ينتابه شعور غريبٌ بالخوف.

فيقول لصديقه:

-اجعل المسافة بين السيارتين كبيرة يا رامي. وتوقفْ بعيداً. الأمر لا يُطمئن.

ثم يلتفت إلى هند قائلا: ندمتُ أشد الندم على إقحامكِ في هذه الزيارة المريبة.

تنظر إليهما طويلا ، ثم تلزم الصمت مما يربك أحمد. فيصرخ:

- قولا شيئا، قد لا تريانى مجدَّداً.

تنخرطُ هند في نشيج مرير. بينما د.رامي يشعل سيجارة وهو يقول:

- يا أحمد لنعدْ قبل أن يطلبوكَ. فالرجال في الداخل الآن لا ندري ماذا يدبِّرون.

وهي فرصة للهروب من هذا المكان النائي.

- كيف نهرب ؟ لسنا بهذا الجبن . ثم إني في قبضتهم منذ وطئت قدمي طريق العودة. ألا ترى؟ ألا ترَيا؟ لستُ أهذي. إنها الحقيقة. قد وقعتُ وانتهى الأمر.

- يا عزيزي لا تقل ذلك..هذا ليس جبنا وإنما عتق رقاب.هند معنا وقد تتعرض لأشياء لا تُحمَد. أنت لا تعرف أساليب اقتلاع الاعترافات لدى الشرطة الجنائية أو غيرها. وصحتك لا تتحمّل.

- هند لا د خل لها. ولا دخل لك أيضا. فأنا المدان الوحيد، وأنتما تعلمان براءتي.

- نحن نعلمها لكنْ هم لا يعلمونها، افهمني يا أحمد. صعبٌ

تصديقك.
- أنتما الشاهدان الوحيدان يا رامي. فلا نتهور بالعودة.لا بدّ من غلق هذا الملفّ إلى الأبد. لن أعيش مرتعبا بقية حياتي من المخزن.
- وقدْ، هنا، يُغلَق عليك مع الملف يا صديقي. فهذا "المخزن" بحر لا قرار له.
- عشتُ ابن المخزن المدلّل وها أنا مطارَدٌ منه. مفارقة عجيبة.
يُفتَح الباب العريض بصرير مزعج. يتقدم رجل صوب الجيب. يأمرهم بالدخول.
يترجلون جميعا من السيارة. ويتبعون المضيف إلى داخل الفيلا. كانت الإنارة قوية في الداخل كما في الخارج. كلابٌ قوية، نوع بيتبول، شديدة الشراسة مقيّدة في زوايا الحديقة. بعض الحراس يقفون بالقرب منها.
يدخل أحمد وصديقاه معا إلى قاعة مكتب واسعة وأنيقة. يجلسون على أرائك جلدية كبيرة. خلف المكتب يتدلى جلد أصالةٍ ضخمة ، يكسو جزءا بارزا من الجدار.
تقول هند بصوت مبحوحٍ: " هذه الخلفية ذات إيحاء مفزع ".
يكتفي الرجلان بتبادل النظرات والصمت. نباح الكلاب يشتدُّ في الخارج، يشتد معه انقباض القلوب في الداخل. تلتصق هند بأحمد وهي تقول بصوت لا يتجاوز حلقها: "كم مُريعة هذه الكلاب !".

أحدهم يلقي التحية بصوت تشمئزله نفوس الوافدين الجدد. يلتفتون جميعا صوب مصدر الصوت. كان ماثلا أمامهم بكامل لياقته. يقفون مرة واحدة. متأنيا يأمرهم بالجلوس ويأخذ مكانه خلف المكتب.

كانت الصدمة أعنف من التصور. تُلجمُ الجميع.

إنه "الشماليّ" تتبعه ليلى المسماة بديعة ورجُلا المطار(الشرطيان اللذان أخذا الماسة من أحمد) وآخرون. كلهم كانوا في صمت ذريع. إلا هو كان يحرك شفتيه بين الفينة و الأخرى. كانت القاعة مترامية حتى أنهم لا يميزون ما يقوله. أو ربما كانوا خارج الإدراك من الخلخلة التي أصابتهم.

يرونه ذا هيئة. كان مَهيبا جدا. تتركز الأبصار والأسماع عليه. ويصاب الآخرون بالخرس. فينطق كأنه القَدَرُ يحسِمُ مصائرهم، بعد أن وُضع أمامه ملف فيه مجموعة من الأوراق. يأخذ إحداها بين يديه. يجول بعينيه في محتواها باهتمام بليغ. والكل متأهب للاستماع، ثم بصوتٍ عالٍ شرع يتحدث:

عبد الله الدّادْسيّ. مغربي الجنسية. من مواليد ١٩٧٢. حاصل على إجازة في علوم التكنولوجية .هاجر إلى فنلندا سنة ١٩٩٦ مع زوجته الأجنبية من أم سويدية وأب فنلندي. اشتغل مسؤولا عن خلية الإعلاميات بإحدى مؤسسات صهره الملياردير لاري كوفين. تنقّل في عدة مؤسسات، إلى أن توفي صهره

سنة ٢٠٠٠. فانتقلت إليه الثروة يتصرف فيها كيف يشاء. وقد

انتحل لقب العائلة الثرية، بعد أن تنحى عن اسمه الحقيقي، فصار يُعرَف بأحمد كوفين. زوجته الصيدلانية كانت تهتم بمشاريع أخرى. لا علاقة لها بتجارة أبيها. تعرضت بعد أربع سنوات من وفاة والدها، إلى الاغتيال داخل قصرها أو الانتحار القهري.

ينحنح أحمد بكلمات متحشرجة عند سماعه هذا، هامسا:

أنا أيضا أشك في انتحارها.

يجلده الرجل بنظرة حارقة ترجّ كيانه، فيلزم الصمتَ مكرَها.

يستطرد المسمى عليٌّ حديثه وقد احتدت نبرة صوته:

- بعد سنة من ذلك أي في سنة ٢٠٠٧، انتقل للعيش في كندا بعدما صفّى حساباته

المالية في بعض ولاياتها بتوكيل محاميه للقيام بذلك.

خلال عامه الأول في كندا توطدت علاقته بالفرنسية كرستينا صديقة زوجته الراحلة.

وفي ليلة ساخنة من ليالي الشتاء الطويلة، في إحدى الحانات بأوتاوا عام ٢٠٠٨ كان العاشقان في ذروة النشوة بالخمر والمخدرات، حين جاءته مكالمة خرج على إثرها من الحانة. كانت الفترة التي غاب فيها، كافية لتدبير اغتيال صاحبته الفرنسية.

ينحنح من جديد وصوته المتحشرج يعلو بعض الشيء:

- لا علاقة لي بما حدث تلك الليلة.

- المكالمة التي ورد ت إليك، كانت من إحدى عشيقاتك. أليس كذلك؟ وكنتَ

تنتظرها. وأنت في حضن أخرى. كنتَ تتردد على هاتفك طيلة السهرة.

- كنتُ أتوقعها ولا أنتظرها.

- تتوقع الجريمة أم الفتاة الأخرى. أم كلاهما. اسمعني جيدا. أتعلم من كان مع عشيقتك كريستي عندما خرجتْ تبحث عنك؟

- لا.

- دقّق جيدا في ملفاتك الماضية وقارن بين الهامات، ربما توحي لك بشيء. إذا لم تتذكر الوجوه.

- لا أذكر شيئا. ولا أظنك أنت.

- سأصدمك أيها النبيه.

يلفظ هذه العبارة ساخرا. ويستطرد:

- هاتوا المسدس.

ترتعبُ هند فتصرخ:

- لا تفعلها يا علي. أتوسل إليك.

يرد :أخرجوها من هنا.

يجذبها أحد الحراس إلى الخارج وهي تستغيث وتبكي.

كان الدكتور رامي يرتجف في مكانه وقد امتقع لونه. يلتفت إليه الشماليّ قائلا:

- أ تبقى أم تتبعها أنت أيضا؟ ربما لن تتحمّل.

يحرّك شفتيه المتيبستين قائلا: لا. بل... أظلّ. ولي رجاء.

- دُلّوهُ على مكانٍ آمنٍ مع الفتاة. لن نحتاج إليهما. تفضّل الحق بصاحبتك.

- رجاءً إنه مريض ولا يستحمل العنف.

يشير "الرجل" العنيف إلى البابِ مردّداً بصوتٍ أكثر قسوةً: قلتُ هيّا اخرجْ.

يظل أحمد أو عبد الله وجها لوجه مع مصيره.

صامتا يبلع ريقه و ينتظر. لم يعد يعرف من هؤلاء. ولا من هو الشماليّ. بعد دقيقتين كان مسدسه الضائع أمامه. كانت الصدمة أقوى عليه. علِم أنها نهايته. إما إلى زنزانة عرضها كطولها لا يتجاوز طول قامته، أو إلى رِمسٍ يخفي جثته إلى الأبد.

على كل حال لن يخرج من هنا. هذا ما وصل إليه تفكيره. أخذ يفكر في صديقيْه. رامي وهند. ما مصيرهما بعده؟ هل سيتخلصون منهما أيضا أم سيخلّصوهما؟

صوت الرجل القويّ يهز أركان نفسه المتداعية فتهوي إلى ركبتيه. كان ضغط السكري في دمه يرتفع. يشعر باجتفاف مُريع. بدأ يتصبب عرقا. جسمه يلفظ كل الماء من مسامه. ينغلق سمعه بالتدريج، لم يعد يسمع إلا نبضه المتهالك.

كان الشماليّ يتحدث والآخرون يستمعون إلا هو. إنه يفقد الإدراك كصنم بلا إحساس. ثم يهوي كشجرة توتٍ قديمةٍ. فترتج الأرض تحت قدميه. كان شاحب الوجه.

تحدث حركة غير عادية في الغرفة. يقول الشمالي بصوت هادئ:

"إنها إحدى نوباته التي تلازمه".
نودي على الدكتور رامي، ليحقنه بمادة الأنسولين. فبدأ يستعيد وعيه.
ثم تستمر المحاكمة السرية. يُطْلَب من الدكتور المكوث في القاعة. جيء بكوب عصير برتقال لأحمد . وبعد دقيقتين يستأنف الشماليّ التحقيق أو الإدانة:
-أتعرف من الشخص الذي كان يتحدث إلى كريستي، قبل اغتيالها؟
يرفع أحمد رأسهُ ، يحدّق مليا في وجهه قبل أن يجيبه بصوتٍ يكادُ لا يُسمَع:
- هو نفسه الذي سرق مسدسي واستعمله في تصفيتها.
- مسدسكَ لم يُسرق منك. أنت تعرف أين تركتَه. في غرفة إحدى صديقاتك بالفندق في نفس الليلة.
- مسدسي انسرق مني. الآن فقط بدأتْ تنجلي أمامي أشياء كثيرة كانت مُبهَمَة.
- أتعلم أن الغانية التي كنتَ بغرفتها تلك الليلة، قد اغتيلت مباشرة بعد انصرافك؟
- هي أيضا اغتيلتْ؟ لم أعلم بذلك. هي طبيبة صديقة. كانتْ تهتمّ بي لأني أحسستُ ليلتها بوعكة فدعوتها.
- هكذا مصادفةً توضَع في المكان الخطإ في الوقت الخطإ. وأنت البريء دائما.

- مــن غيــر ســخرية رجــاءً. فأنــت تعــرف عنّـي كــل شــيء.
- ولأني أعلمُ كلّ شيء فأنا هنا لأكشفك لنفسك.
- أنا لم أقتل أحداً. ففي اللحظة التي اغتيلت كريستي، كنتُ أردّ على مكالمة تلفونية.
وحين عدتُ إلى الطاولة التي كنا نجلس حولها. لم تكن كريستي هناك.
- كانت مع رجل آخر. تبعتَهما وأنت تذيع الشتائم.
- كنتُ سكرانا. لم أكن أعي تماما ما أقوله.
- ومن خلفك جاءت طلقتان من مسدسك، واحدة في رأس كريستي والأخرى كادت أن تفجر رأسك. ورصاصة أخرى من مسدس الرجل الذي كان يرافقها. أتعلم من تبادل الرصاص مع القاتل تلك الليلة؟
- قلتُ لك لا أعلمُ.
- إنه الماثل أمامك. ومحدِّثك الآن. هو من صَدّ القاتل عنك.
- أنت؟
- أجل. وأنا من كنتُ أحدّث كريستي الضحية حين تواريتَ لحظئذ.
-بصفتك منْ؟
- بصفتي مسؤول استخباراتي دولي. ولستُ مجبرا لأكشف أمامك كل أوراقي.
يسود الصمتُ. يظل النباح في تصاعدٍ خارج الصالة. يبدو قريباً أكثر. كأن الحراس يتعمّدون تهييجها.

يعود العميل الاستخباراتي إلى الحديث مرة أخرى، بعدما سكب في فمه كوب عصيرٍ قبل أن يرفع صوته قائلا:

-أتعرف من الجاني الذي كاد يفضي بحياتك؟.. إنها عصابات المافيا التي كنتَ تتعامل معها بعلمك أو بدون علمك. وصهرك من قبلُ كان عضوا بارزا فيها. إنهم تجار السلاح والمخدرات والنساء مع تبييض الأموال.

يضرب بكفيه طاولة المكتب أمامه بانفعال شديد وهو يصرخ:

أنت وصهرك متورطان في العديد من الجرائم.

يستطرد أحمد منهاراً، كأنه لم يستسغ الاتهامات الثقيلة الموجّهة إليه:

- الطلقاتُ جاءت من قِبل الباب، بابِ الحانة. يعني مباشرة بعد دخولي إليها.

- المكالمة التي جاءتك من إحدى نسائك كانت مقصودة. والعشيقة الأخرى التي قادتك قبل تنفيذ عملية الاغتيال، إلى غرفتها لقضاء وطرها منك كانت مقصودة.

يلتفتُ أحمد إلى الدكتور رامي الذي يتابع سلسلةً درامية مرعبة. تُفَكُّ أزرارُها أمام الجميع. تتقابل نظراتهما عميقاً. يبلع الدكتور ريقهُ الناشفَ. فيقول أحمد والدمع يملأ عينيه:

"إذن أنا يا رامي طِلعت أغبى رجل في العالم. أنا انتهِيت يا صاحبي..انتهِيت. أنت لا تصدقُ إدانتي طبعاً..وهند أيضا لا تصدق ذلك. تعلمان أني بريءٌ. بريءٌ يا أمي. بريءٌ يا وطني. لكنني ساذجٌ

تبِع البريق فوقع على وجهه في المستنقع".
بصوتٍ كسيرٍ يتابع وقد وهن أكثر: استنكفتُ عن أهلي وعن بلدي، فضيّعني المال والشهرة.
يُغرِق وجهه في راحتيه. يتفرّق الرجال الآخرون إلى وظائفهم بعد استماعهم لمقتضيات الملف السري الحامل لعنوان(الجريمة ثلاثية الأبعاد رقم٨٤٨).
ويبقى الثلاثة في الغرفة . نودي على هند للالتحاق بهم. تدخلُ مرتجفةً.
يعلو نباح الكلاب في كل أرجاء الحديقة. تدوّي ريح قوية في الخارج. تتسرب إلى داخل الصالة. تتطاير الستائر الداكنة. فيتمايل جلد الأصالة، تغطي هند عينيها بيديها وتصرخ. يشتد نشيج أحمد.
ثم يخبو بالتدريج إلى أن سكن. يمدّ إليه المخبِر شيئا يلمع في كف يده قائلا:
-خذ حاجتَك. تأكدنا من مصدرها.
تدقق هند في الكف الممدودة بعينين دامعتينِ. تمسحهما بكمها وهي تدعك رأسه:
الماسة يا أحمد..الماسة..
كان الدكتور رامي يجس نبض الجسد البارد، حين جثا على ركبتيه يبكي بحرقةٍ، صديقه الحميم.

—